الرحّالة المسلمون فى العصور الوسطى

للدكتور

زكى محمد حسن



ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف

١٩٤٥م

فنحن الناس كل النا   س فى البر وفى البحر

أخذنا جزية الخلق   من الصين إلى مصر

إلى طنجة ، بل فى كـ   ـل أرض خيلنا تسرى

إذا ضاق بنا قطر   تَزُل عنه إلى قطر

لنا الدنيا بما فيها   من الإسلام والكفر

فنصطاف على الثلج   ونشتو بلد التمر

أبو دلف مسعر بن المهلهل

رسوم هذا الكتاب من نقل الأستاذ
فريد شافعى المهندس بالقصور الملكية
والمدرس المنتدب بمعهد الآثار الإسلامية
بجامعة فؤاد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لما بدأ القرن الثامن الميلادى كان العرب قد امتدت فتوحاتهم وأصبح لهم ملك واسع الأرجاء . وفى بداءة هذا القرن فتحوا بلاد ما وراء النهر و بلاد الأندلس ؛ فانبسطت امبراطوريتهم من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى صحارى إفريقية جنوباً .

وكان لاختلاط العرب بالشعوب الأخرى أثر كبير فى نشأة المدنية الإسلامية وتطورها ، فملك العرب ناصية العلم والمعرفة ، وحفظوا لأوربا تراث اليونان ، وتقدمت على يدهم العلوم المختلفة .

وأتيح للمسلمين فى العصور الوسطى أن يحوزوا قصب السبق فى ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية . وأفادت أوربا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة فى القرون الوسطى .

والحق أن ازدهار الحضارة الإسلامية ، وسيادة المسلمين فى البر والبحر ، وطبيعة الدين الإسلامى ، كل ذلك كان من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات .

* * *

فالجزء الأكبر من العالم المعروف فى فجر الإسلام كانت تزدهر فيه مدنية الإسلام وتدير دفته حكومة إسلامية . ثم فقدت الإمبراطورية الإسلامية وحدتها السياسية منذ منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ؛ ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكان الدول الإسلامية ، فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف . وقد كانت تلك الروابط قوية فى العصور الوسطى . ولم تكن القوميات الإقليمية قد عظم شأنها بعد . وكانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه المسلمون تتطلب الدراسة والوصف ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة ، وتسهيلا لمهمة الولاة . فسافر القوم ، لدراسة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخراجها وما إلى ذلك ، مما لابد منه للتأليف فى علم تقويم البلدان . وطبيعى أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم فى تلك العصور ؛ فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العملية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات ، التى تزدحم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة . وفضلا عن ذلك فقد تعددت مراكز الثقافة فى

ديار الإسلام ، وكان رجال العلم ينتقلون فى طلبه من إقليم إلى آخر ، يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ثم الأطباء والفلاسفة والرياضيين .

* * *

وكذلك كان الحج من أعظم بواعث الرحلات ، فإن ألوف المسلمين يتجهون كل عام من شتى أنحاء العالم الإسلامى إلى الحجاز ، لتأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبى . وكان الحجاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطرق التى سلكوها والأحداث التى صادفوها . وقد كان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم ، ويعملون على أن ينفعوا المؤمنين بتجاربهم ؛ فيصفون رحلاتهم ، تسجيلا لفضلهم ، وهداية لغيرهم ، ولفتاً لنظر أولى الأمر إلى ما يجب إصلاحه ، كما كان أهل الخير والتقوى فى شتى البلاد الإسلامية يرحبون بإخوانهم المسلمين الميممين شطر الأراضى المقدسة ويعنون بإقامة الرباطات وحبس الأوقاف للانفاق منها فى سبيل راحتهم .

* * *

واتسع نطاق التجارة عند المسلمين اتساعاً لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أمريكا ؛ فانتشرت قوافل التجار المسلمين فى القسم الأعظم من العالم المعروف فى ذلك العهد ، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات ، وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى

وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطىء المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط وساحل أفريقيا الشرقى وجزر المحيط الهندى وصحارى السودان . وكان التجار يحملون السلع بين الأسواق المختلفة فى العالم الممدّن حينئذ ، ويقومون بالرحلات الطويلة فى هذا السبيل . وحسبنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التى عثر عليها فى الروسيا وفنلنده والسويد والنرويج ، بل فى سويسرا وجزيرة إيسلنده والجزائر البريطانية . وترجع قطع العملة المذكورة إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية الخامس بعد الهجرة (السابع وبداية الحادى عشر الميلادى) . ولسنا نجزم بأن كثيراً من التجار المسلمين أنفسهم وصلوا إلى ايسلنده أو النرويج أو الجزر البريطانية ؛ ولكن كتب الرحلات وتقويم البلدان عندهم تشير إلى ترددهم على جنوبى الروسيا ، وإلى وصولهم أوربا الوسطى . ويشهد ذلك كله بما كان للمسلمين من سيادة تجارية فى تلك البقاع .

وقد كتب المقدسى بياناً بالسلع التى كان المسلمون يحصلون عليها من جنوبى الروسيا والبلاد الأوربية الشمالية ؛ وقوامها أنواع الفراء والجلود والشمع والنشاب والقلانس والغرا والعسل والسيوف والدروع والأغنام والبقر ، كل ذلك فضلا عن الرقيق من الصقالبة . والمعروف أن المسلمين استعملوا لفظ « الصقالبة » بمعنى أوسع ، فكان لا يشمل عندهم السلاڤيين فحسب ، بل امتد إلى الجرمان وسائر سكان أوربا . أما أهم ما كان يحمله

التجار المسلمون إلى تلك الأقاليم فالمنسوجات بأنواعها و بعض التحف المعدنية ثم الفاكهة . وسوف نرى عند الكلام على الرحالة أنفسهم عظم تجارة المسلمين فى شرقى أفريقيا ووسطها وأقليم غانة وفى بحار الصين وجزر الهند الشرقية . وحسبنا ما ذكره ابن جبير وابن بطوطة من أن التجار فى عدن كانت لهم ثروات طائلة ، وكان بعضهم يملك المراكب العظيمة لنقل سلعهم . أما التجارة بين الشرق الأدنى والأمم المسيحية فى البحر الأبيض المتوسط فقد كان معظمها فى يد اليهود[١] ولكن الرحالة والتجار المسلمين كانوا يزورون القسطنطينية والمدن التجارية فى شبه جزيرة إيطاليا وكان للمنسوجات الشرقية والسجاد سوق رائجة فى أوربا .

---

(١) يشهد بذلك النص المشهور الذى جاء فى كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه المتوفى فى بداءة القرن الرابع الهجرى (١٠ م) . وقد تحدث فيه عن مصر ونشاط التجار اليهود فذكر أنهم كانوا يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الحجاز وجدة ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها للروم ، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجاراتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون فى الفرات إلى بغداد ثم يركبون فى دجلة إلى الإبلة ، ومن الإبلة إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض (ابن خرداذبه ص ٥١٣)

ومن الطريف أن بعض المسلمين كانوا يجمعون بين التجارة وطلب العلم . من ذلك أن أحد رفقاء المقدسى فى السفينة إلى عدن صارحه بأنه يخشى عليه إذا دخل هذا الثغر « فسمع أن رجلا ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة ، طلبت نفسه التكاثر » وانصرف عن جمع العلوم إلى التجارة . فدعا المقدسى أن يعصمه الله ؛ ولكنه لما دخل عدن وسمع عن إثراء التجار أكثر مما قال رفيقه فى السفينة ، غره ذلك وعقد العزم على السفر بتجارة إلى ساحل إفريقية الشرقى ، واشترى مع شريك له ما يلزم للتجارة مع تلك الأقاليم ، ولم يثنه عن هذا العزم ويبقه لطلب العلم إلا موت هذا الشريك . وسيمر بنا فى الصفحات التالية أن ياقوت صاحب « معجم البلدان » كان ممن رحلوا للتجارة وطلب العلم .

*
* *

وكان بعض أمراء المسلمين يوفدون الرسل والسفراء إلى غيرهم من أمراء المسلمين ، فدعا ذلك أحياناً إلى القيام برحلات طريفة إلى أصقاع لا يألفها المسلمون . من ذلك رحلة ابن فضلان إلى جنوبى الروسيا . ومن ذلك أيضاً السفارة الأندلسية نحو سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) إلى أوتو الأكبر أمبراطور الجرمان . والمحتمل أن بعض أعضاء تلك السفارة كانوا مصدر ما كتبه القزوينى عن بعض البلاد الألمانية .

وطبيعى أن كثيرين من المسلمين كانوا يرحلون سعياً فى طلب الرزق . وحسبنا أن نشير إلى الخياط البغدادى الذى قابله الرحالة ابن فضلان فى إقليم الفولجا . ثم كان أعلام الفنانين ومهرة الصناع ينتقلون من إقليم إلى آخر لينتفع الأمراء بجهودهم ؛ أو كانوا يؤمرون بالسفر إلى بعض الأطراف النائية ، للاشتراك فى المنشئات الجديدة ، أو المساهمة فى تجديد بناء أو زخرفة عمارة أو إنتاج التحف الفنية النفيسة .

ولسنا ننسى فى هذه المناسبة أن إكرام الضيف عند الشرقيين ، و بساطة العيش فى القرون الوسطى ، وحث الإسلام على السفر بتخفيف بعض الواجبات الدينية على المسافرين ، كل ذلك سهّل الرحلات وشجع على القيام بها .

*
* *

ومن المحتمل أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام كانت تخفف بعض متاعب الأسفار ، ولا تجعل الرحالة المسلمين محل شكوك أو مصدر متاعب اجتماعية . فكان بعضهم يتزوج فى البلاد التى ينزل فيها فترة من الزمن . ومن الطريف فى هذا الصدد أن الرحالة ابن بطوطة تزوج فى مصر مرتين على الأقل ، وكانت له فى جزائر المديف أربع زوجات . وقد كتب عن هذه الجزائر : « والتزوج بهذه الجزائر سهل ، لنذارة الصداق ، وحسن معاشرة النساء . . و إذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء . فإذا أرادوا السفر طلقوهن . وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا . . ولم أر فى الدنيا

أحسن معاشرة منهن . ولا تكل المرأة عندهم خِدْمة زوجها إلى سواها ؛ بل هى تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ، وتغم رجليه عند النوم . ومن عوائدهن ألا تأكل المرأة مع زوجها . ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوجت بها نسوة ؛ فأكل معى بعضهن بعد محاولة ؛ و بعضهن لم تأكل معى ، ولا استطعت أن أراها تأكل »

وكذلك أعجبه من نساء مدينة زبيد باليمن « أن للغريب عندهن مزية ؛ ولا يمتنعن من تزوجه ، كما يفعله نساء بلادنا (أى المغرب) . فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته . و إن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له ، إلى أن يرجع أبوه . ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها . و إذا كان مقيما ، فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا . ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه ، على أن تخرج من بلدها لم تفعل » .

*

* *

ومن القصص الطريفة التى تشهد باتساع الأسفار الإسلامية قصة رواها الرحالة ابن بطوطة الذى سيلى ذكره فى هذا الكتاب . وتشير هذه القصة إلى أن الرحالة المسلم كان يعثر أحياناً فى أبعد آفاق المعمورة عن بلاده على مواطن له من التجار أو السياح . قال ابن بطوطة فى كلامه على إقامته بمدينة قنجنفو بالصين « و بينما أنا يوماً فى دار ظهير الدين القرلانى ، إذا

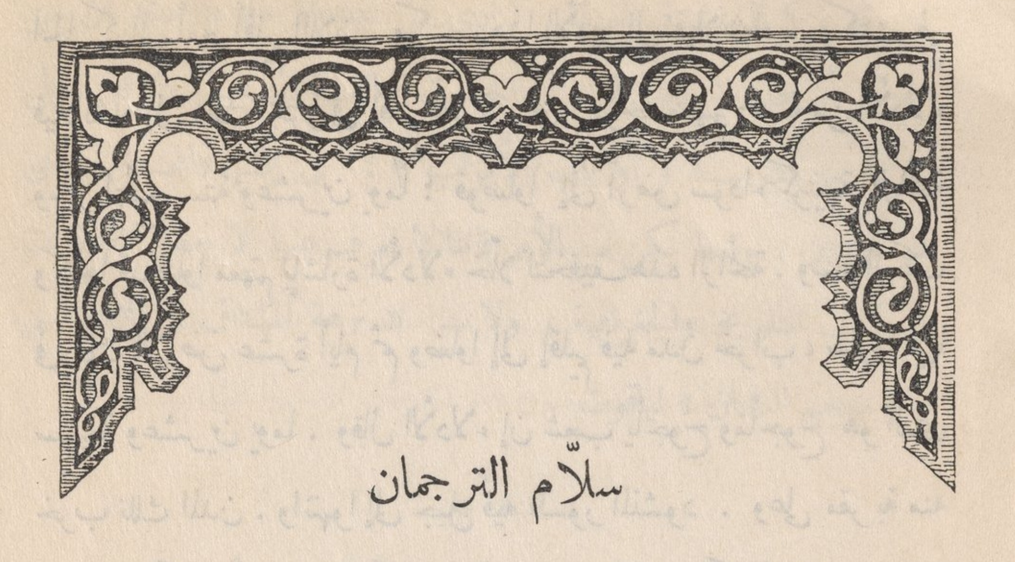
بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم ، فاستؤذن له عليّ . وقالوا مولانا قوام الدين السبتي ؛ فعجبت من اسمه . ودخل إلى . فلما حصلت المؤانسة بعد السلام ، سنح لى أنى أعرفه . فأطلت النظر إليه . فقال : أراك تنظر إلى نظر من يعرفنى! فقلت له : من أى البلاد أنت ؟ فقال: من سبته (على شاطىء مراكش فى مواجهة جبل طارق) . فقلت له : وأنا من طنجة . فجدد السلام على ، وبكى حتى بكيت لبكائه . فقلت له : هل دخلت بلاد الهند ؟ فقال لى : نعم ، دخلت حضرة دهلى . فلما قال لى ذلك تذكرت له . وقلت : أأنت البشرى ؟ قال : نعم . وكان وصل إلى دهلى مع خاله أبى القاسم المرسى ، وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ . وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وطلب منه الإقامة عنده فأبى . وكان قصده فى بلاد الصين . فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة . أخبرنى أن له نحو خمسين غلاماً ومثلهم من الجوارى . وأهدى إلىّ منهم غلامين وجاريتين وتحفاً كثيرة . ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان . فيا بعد ما بينهما ! » .

*
* *

وهكذا نرى أن المسلمين فى العصور الوسطى أتيح لهم القيام بكثير من الرحلات والأسفار . والحق أن ما كتبه المؤلفون المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع بعد الهجرة (التاسع والخامس عشر بعد الميلاد) عن الرحلات كثير جداً ؛ ولكن المعروف أن الرحالة لم يكتبوا أخبار

رحلاتهم فى مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً . أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان . كما أشار بعض المؤلفين إلى رحلات قام بها غيرهم ولم يصل إلينا شىء عنها من تأليف أصحابها أنفسهم . وفضلا عن هذا كله فثمة رحلات قام بها الملاحون التجار ، ضاعت أخبارها أو لم يدونها أصحابها ، وإن كانوا من المصادر التى نقل عنها المؤرخون والجغرافيون الكثير من وصف البلاد النائية ، والتى يرجع إليها ما نراه من قصص البحر فى الأدب العربى مثل قصة السندباد البحرى .





سلاّم الترجمان

إن رحلة سلام الترجمان إلى سور الصين الشمالى قد تكون حقيقة تاريخية ، و إن كان سببها الذى يذكره الجغرافيون العرب — كالقزوينى و ياقوت — على لسان الرحالة نفسه ، أشبه بأسطورة خيالية . والظاهر أن حديثها كان مشهوراً فى العصور الوسطى . وقصة هذه الرحلة أن سلاما الترجمان يزعم أن الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧—٢٣٢ ﻫ أى ٨٤٢ — ٨٤٧ م) رأى فى المنام أن السد الذى بناه الإسكندر ذو القرنين (والذى يقع بين ديار المسلمين وديار يأجوج ومأجوج) مفتوح ؛ فأرعبه هذا المنام ، وأمر سلاما بأن يرحل ليتفقد السد . فسار الترجمان من مدينة سر من رأى ، ومعه خمسون رجلا ومائتا بغل تحمل الزاد والماء ؛ وكان الخليفة قد أعطاه كتاباً إلى حاكم أرمينية ليقضى حوائجهم و يسهل مهمتهم . فعنى هذا الحاكم بالرحالة ورجاله ، وزودهم بكتاب توصية إلى حاكم إقليم السرير . وكتب لهم هذا

الحا كم إلى أمير أقليم اللان . وكتب هذا الأمير إلى فيلانشاه . وكتب لهم فيلانشاه إلى ملك الخزر فى إقليم بحر قزوين ؛ فوجه معهم خمسة من الأدلاء وسار الجميع ستة وعشرين يوماً ؛ فوصلوا إلى أرض سوداء كريهة الرائحة وكانوا قدحملوا معهم بإشارة الأدلاء خلّا لتخفيف هذه الرائحة . وسار الركب فى تلك الأرض عشرة أيام ثم وصلوا إلى إقليم فيه مدن خراب ، ساروا فيها سبعة وعشرين يوما . وقال الأدلاء إن شعب يأجوج ومأجوج هو الذى خرب تلك المدن . وانتهوا إلى جبل فيه السور المنشود . وعلى مقربة منه حصون تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية ؛ ولكنها لم تسمع بخليفة المسلمين قط . وتقدم الركب إلى جبل لانبات عليه يقطعه واد عرضه مائة وخمسون ذراعا . وفى الوادى باب ضخم جداً من الحديد والنحاس ، عليه قفل طوله سبعة أذرع وارتفاعه خمسة ، وفوق الباب بناء متين يرتفع إلى رأس الجبل . وكان رئيس تلك الحصون الإسلامية يركب فى كل جمعة ومعه عشرة فرسان ، مع كل منهم مرزبة من حديد ، فيجيئون إلى الباب ويضربون القفل ضربات كثيرة ؛ ليسمع من يسكنون خلفه ، فيعلموا أن للباب حفظة ، وليتأكد الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا فى الباب حدثاً .

ولما فرغ سلام الترجمان ورفقاؤه من مشاهدة السور رجعوا إلى سرمن رأى مارين بخراسان . وكان غيابهم فى هذه الرحلة ثمانية عشر شهراً .

وقد ذكر المستشرق الفرنسى كرادى فو Carra de Vaux أن من المحتمل أن هذه الرحلة كانت إلى الحصون الواقعة فى جبال القوقاز وعلى مقربة من دربند (أو باب الأبواب) ، فى إقليم داغستان غربى بحر قزوين . ومهما يكن من الأمر فاننا لا نعرف عنها إلا بعض المقتطفات فى كتب التاريخ والجغرافية ، ولا سيما « نزهة المشتاق » للادريسى و « معجم البلدان » لياقوت .

*
* *

ومن غريب ما نقله أبو حامد الأندلسى فى كتاب « العجائب » عن سلام الترجمان أنه قال :

« وأقمت عند ملك الخزر أياماً ، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جداً وجذبوها بالحبال ، فانفتح أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة ، فأخرجوها إلى البر وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح وقد خلق الله تعالى فى وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبتيها كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت » .

وقد تساءل الدكتور حسين فوزى فى كتابه «حديث السندباد القديم» . (ص ١٣٥) عن تفسير ما رأى سلام الترجمان عند ملك الخزر وكتب فى ذلك : « أيكون الملك قد عرض على خليفة المسلمين منظراً تمثيلياً من نوع

« البانتوميم » احتفاء به واحتفالاً بقدومه ، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة ؟ أو أن ملك الخزر كان ماجناً مهزاراً لا يرى عيباً أن يسخر من ضيفه فيدخل عليه منظر الغانية التى تخرج من أذن سمكة عظيمة جداً ، فيبتلع (أى فيصدّق) سلام المنظر والغانية والسمكة الكبيرة ؟ » وعندنا أن من المحتمل أيضاً أن يكون سلام الترجمان سمع من بعض العامة فى بلاد الخزر حديث تلك السمكة فعلقت بذهنه ونسبها إلى مشاهداته الخاصة .





ابن وهب القرشى

كان ابن وهب من ذوى الثروة والجاه فى العراق ومن ولد هبار بن الأسود . وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه قام برحلة إلى الصين نحو سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) ، فترك مدينة البصرة عند ما خرّبها الزنج وخرج من ميناء سيراف على بعض مراكب هندية . وساح طويلا فى ممالك الهند ، إلى أن انتهى إلى مدينة خانفو (كنتون) بمملكة الصين . ثم تقدم إلى مدينة خمدان عاصمة تلك المملكة ، وتقع هذه المدينة على مقدار شهرين من خانفو . والتمس ابن وهب مواجهة الإمبراطور ؛ ولكنه لم يفلح إلا بعد انتظار طويل ، و بعد أن أرسل الإمبراطور إلى حاكم خانفو يأمره بالبحث عن حقيقة ابن وهب والاستفسار من التجار العرب عما يدعيه من قرابته لنبى المسلمين . فلما كتب الحاكم بصحة نسبه أكرم الامبراطور مثواه وأذن له فى الوصول اليه وناقشه فى الدين والسياسة ؛ ثم عرض عليه صور بعض

الأنبياء ، مثل نوح فى السفينة ، وموسى و بنى إسرائيل ، وعيسى على حماره والحواريون معه ، ثم محمد على جمل وأصحابه محدقون به[١] . وأمر له بعد ذلك بالهدايا النفيسة . وأوصى به حاكم خانفو .

ولا نعرف أن ابن وهب دوّن ما شاهده فى رحلته ؛ ولكن لاشك فى أنه تحدث عنها . وقد أفاد من هذا الحديث مؤلف أسمه أبو زيد حسن ، سوف يأتى الكلام عليه . كما أشار المسعودى إلى هذه الرحلة فى كتابه « مروج الذهب » ، فى الفصل الذى عقده للحديث عن ملوك الصين . وقد رجح المستشرق رينو Reinaud أن أبا زيد حسن لقى المسعودى وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية .



(١) أنظر مقالنا « السيرة فى الفن الإسلامى » فى عدد مايو سنة ١٩٤٠ من مجلة المقتطف ، وراجع كتابنا « الصين وفنون الإسلام » ص ١٢و٣٩



سليمان السيرافى

تشير المصادر التاريخية فى اللغتين العربيـة والصينية إلى وجود جموع من المسلمين فى الصين فى عهد أسرة تنج التى حكمت الصين بين عامى ٦١٨ و ٩٠٦م . وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور .

وكان التجار المسلمون المنصرفون إلى الشرق الأقصى يبحرون من البصرة ومن سيراف على الخليج الفارسى أو « الخليج الصينى » كما كانوا يسمونه أحياناً فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . وكانت السفن الصينية الكبيرة تصل إلى ثغر سيراف ، وتشحن بالبضائع الواردة من البصرة ؛ ثم تتجه إلى ساحل عمان وتعبر المحيط الهندى مارة بسرنديب وجزائر البحار الجنوبية ، حتى تصل إلى مدينة خانفو ، حيث كانت تعيش جالية إسلامية وافرة العدد عظيمة الشأن . وفى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه عبارة تفيد أن بعض تجار المسلمين وصلوا إلى شبه جزيرة كوريا .

والمعروف أن قدوم التجار الصينيين أنفسهم إلى الخليج الفارسى أخذ يهبط تدريجياً منذ بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ؛ على حين زاد سفر العرب إلى البحار الجنوبية . ثم حدث أن خرب ثغر خانفو نحو سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) بسبب بعض الاضطرابات فى بلاد الصين ؛ فقتل كثير من المسلمين ، ولم تعد المواصلات البحرية تامة الانتظام بين الصين والشرق الأدنى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وأصبحت السفن من الجانبين لا تبحر إلا إلى مدينة فى منتصف الطريق بين البلدين تسمى « كلاه » ، اشتهرت بمناجم القصدير . وأكبر الظن أنها كانت من ثغور الشاطىء الغربى فى ملقا .

وقد أشار أبو زيد حسن والمسعودى إلى هذه الحالة فى حديثهما عن رجل من أهل مدينة سمرقند « خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق ، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة ، وركب البحر حتى وصل إلى بلاد عمان ، وركب إلى بلاد « كلاه » وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك ، وإليها تنتهى مراكب الإسلام من السيرافيين والعمانيين فى هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم . وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك ؛ وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة . . . ولما عدم العدل وفسدت النيات . . . التقى الفريقان جميعاً فى هذا النصف . ثم ركب هذا

التاجر من مدينة كلاه فى مراكب الصين إلى مدينة خانفو » .

* * *

ومن المسلمين الذين زاروا الهند والصين عدة مرات رحالة عربى اسمه سليمان ، لا نكاد نعرف شيئاً عن ترجمة حياته ؛ ولكن وصف سياحته فى الهند والصين انتهى إلينا . فقد كتبه سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) — ولهذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن ، واعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين ، ولا سيما ابن وهب الذى مر ذكره . وقد طبعت هذه الرحلة سنة ١٨١١ على يد المستشرق لانجلس Langlès ثم نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ . كما أحاط بها المستشرق فران Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتى ترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها ونشرها فى مؤلف من مجلدين .

وتحدث الدكتور حسين فوزى عن هذه الرحلة فى كتابه « حديث السندباد القديم » (ص ٢١ — ٣٢) وقال إنها « تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية فى المحيط الهندى و بحر الصين فى القرن التاسع . وربما كانت الأثر العربى الوحيد الذى يتحدث عن سواحل البحر الشرقى الكبير والطريق الملاحى إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب ؛

وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والإصطخرى وابن حوقل والمسعودى يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التى يذكرونها ، فانهم أيضاً ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربى الأول بلفظه ومعناه فى بعض الأحيان ، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه فى البعض الآخر»

وتمتاز رحلة سليمان والذيل الذى وضعه أبو زيد بما فيهما من وصف صادق للطرق التجارية ، ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ولأهم المنتجات فى الهند وسرنديب وجاوه والصين ، مع قلة الخرافات والأساطير التى تكثر فى أحاديث البحارة . وتمتازان أيضاً بالأخبار الوافية عن علاقة المسلمين بالصين فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر بعد الميلاد) . من ذلك أن مدينة خانفو ، أكبر أسواق الصين حينئذ ، كان فيها رجل مسلم « يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية . . . وإذا كان فى العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين » والواقع أن المصادر الصينية تشهد بوجود هذا النوع من الامتيازات ، وبأنه امتد إلى الجاليات الإسلامية الأخرى فى سائر مدن الصين ؛ فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها وإن كانت الحكومة الصينية احتفظت لنفسها بحق النظر فى الجرائم التى قد يترتب عليها النفى أو الإعدام . والحق أن الاختصاصيين فى الدراسات الصينية من المستشرقين ثبت عندهم صدق كثير مما جاء فى حديث سليمان عن أحوال الصين الاجتماعية .

ومن الطريف أن سليمان السيرافى أول مؤلف غير صينى يشير إلى الشاى . وذلك حين يذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب ، يشرب به الصينيون فى الماء الساخن و يباع منه الشىء الكثير فى جميع مدنهم و يسمونه « ساخ » .

وقال سليمان فى وصف بعض جزائر المحيط الهندى أن لأهلها ذهباً كثيراً « وأكلهم النارجيل و به يتأدمون و يدّهنون ، و إذا أراد واحد منهم أن يتزوج ، لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم ، فإذا قتل اثنين زوّج اثنين ، وكذلك إن قتل خمسين زوّج خمسين امرأة بخمسين قحفاً وسبب ذلك أن أعداءهم كثير ، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر » .

ومما ذكره أبو زيد حسن ، فى الذيل الذى وضعه لرحلة سليمان ، أن السفن القادمة من سيراف متجهة إلى البحر الأحمر كانت إذا وصلت جدّة أقامت بها ، ونقل ما فيها من السلع إلى مراكب خاصة تحمله إلى مصر ، وتسمى مراكب القلزم ، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة فى شمالى البحر الأحمر .

وأتى أبو زيد بكثير من أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيطين الهندى والهادى وتحدث عن العنبر واللؤلؤ والمسك ومصادرها . وأشار إلى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان وذلك بسبب قيام ثورات فيها .



ابن فضلان

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد. كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين وللقائد محمد بن سليمان، الذى أفلح فى هزم الدولة الطولونية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م). ولسنا نعرف من سيرة ابن فضلان شيئاً كثيراً. والذى لا نشك فيه أنه قام سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) برحلة إلى بلاد البلغار. وهم الشعب الذى أسس فى بداءة العصور الوسطى دولتين: أقدمهما فى حوض الفولجا الأوسط (أو نهر اتل كما تسميه المصادر العربية)، والأخرى فى حوض الطونة. والأولى هى التى زارها ابن فضلان وانتشر فيها الإسلام. وتطلق كلمة بلغار على الشعب وعلى البلاد، وعلى عاصمتها، التى كانت تقع شرقى نهر الفولجا، والتى لا يزال بعض أطلالها قائماً على مقربة من مدينة قازان الحالية وعلى نحو ستة كيلومترات من شاطىء الفولجا الأيسر، وحيث الدرجة خمس وخمسون

من العرض الشمالى وست وستون من الطول الشرقى . ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى اعتنق البلغار الإسلام . فابن رسته الذى ألف كتابه « الأعلاق النفسية » حول سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) ذكر فيه أن « أكثرهم ينتحلون دين الإسلام ، وفى محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة . . . وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين » . أما رحلة ابن فضلان فيبدو منها أنهم لم يدخلوا فى الإسلام إلا قبيل زيارة هذا الرحالة .

والحق أن لهذه الرحلة شأناً خاصاً ؛ لأن ابن فضلان كان فى بعثة أرسلها الخليفة العباسى المقتدر بالله إلى ملك البلغار ، بعد أن أسلم وكتب إلى الخليفة يسأله « أن يبعث إليه من يفقهه فى الدين ، ويعرفه شرائع الإسلام ويبنى له مسجداً ، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة فى جميع بلده وأقطار مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له » . وقد أجابه الخليفة إلى طلبه . وأرسل إليه هذه السفارة ، التى كان ابن فضلان الخبير الدينى فيها ، والتى كان على رأسها مندوب من الخليفة لبحث الأمور السياسية والحربية . وغادر المندوبون بغداد فى ١١ من صفر سنة ٣٠٩ هـ (٢١ من يونيه سنة ٩٢١) ، متجهين إلى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار ، حيث وصلوا فى ١٢ من محرم سنة ٣١٠ هـ (١٢ من مايو سنة ٩٢٢) .

ورسالة ابن فضلان فى وصف هذه الرحلة نقل عنها المؤلفون المسلمون منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كالاصطخرى والمسعودى .

ثم نقل ياقوت الحموى أجزاء كبيرة منها فيما كتبه عن مادة « أتل » و« باشغرد » و « بلغار » و « خزر » و « خوارزم » . وقد نشرت هذه الرسالة لأول مرة بعناية المستشرق فرهن Fraehn فى سنت بطرسبورج سنة ١٨٢٣ ومعها مقتطفات أخرى مما كتبه المسلمون عن الروس [١] . وحديثاً أفاد منها المستشرق الروسى برتولد فى المقال الذى كتبه عن « البلغار » فى دائرة المعارف الإسلامية ، ثم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام فى مقالين حديثين عن البلغار المسلمين. وقد عثر العالم التركى أحمد زكى الوليدى منذ عشرة أعوام على مخطوط من رحلة ابن فضلان أوفى فى مادته من المقتبسات المعروفة وله مقدمة وصف فيها رحلته عبر فارس و بخارى وخوارزم فى طريقه إلى بلاد البلغار كما أنه يحتوى على كثير من الزيادات والتفصيلات

والحق أن ابن فضلان ترك لنا فى وصف رحلته صورة واضحة للبلغار وحضارتهم وعاداتهم وتجارتهم . ويشهد ما كتبه فى هذا الصدد بأنهم كانوا لا يزالون دون ما وصل إليه المسلمون فى مدنيتهم ، و إن بدت بعض عاداتهم طريفة ، كأن يأكل كل واحد من مائدته لا يشاركه فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً ، وكلبسهم القلانس يرفعونها عن الرأس ويجعلونها تحت الابط للتحية وإظهار الاحترام .

ويلوح ان علاقة ملك البلغار بشعبه كانت علاقة أبوية وديمقراطية ؛ فقد

(١) Ch.M. Fraehn : Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte uber die Russen alterer Zeit (St. Petersbourg 1823)

دون ابن فضلان أن « كل من زرع شيئاً أخذه لنفسه ، ليس للملك فيه حق ؛ غير أنهم يؤدون اليه من كل بيت جلد ثور . و إذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة . . . وكلهم يلبسون القلانس فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد معه . فإذا اجتاز فى السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت أبطه ، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم ؛ وكذلك كل من يدخل على الملك من صغير وكبير حتى أولاده و إخوته ، ساعة يقع نظرهم عليه ، يأخذون قلانسهم فيجعلونها تحت آباطهم ثم يومئون إليه برؤوسهم و يجلسون ثم يقومون حتى يأمرهم بالجلوس ؛ وكل من جلس بين يديه يجلس باركا ولا يلبس قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك .

والظاهر أن السِمَن كان محبوباً عند البلغار ؛ وقد كان ملكهم بديناً . ورأى ابن فضلان عندهم تفاحا « أخضر شديد الحموضة جداً تأكله الجوارى فيسمن » ومما أتعب ابن فضلان فى مهمته الدينية أن الرجال والنساء كانوا ينزلون النهر فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض . وقد اجتهد فى منع ذلك فلم يوفق ؛ وكان مركز المرأة بينهم عالياً ، وكانت الملكة تجلس إلى جانب الملك فى المناسبات الرسمية .

وطبيعى أن هذا الرحالة عرض فى رسالته لطول الليل شتاء وطول النهار صيفاً وتعذر تحديد ساعات الصلاة فكتب فى هذا الصدد : « ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتى لنتحدث ؛ فتحدثنا بمقدار نصف

ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء ؛ فإذا بالأذان ، فخرجنا من القبة ، وقد طلع الفجر . فقلت للمؤذن أى شىء أذّنت ؟ قال الفجر . قلت فعشاء الأخيرة . قال نصليها مع المغرب . قلت فالليل ؟ قال كما ترى ، وقد كان أقصر من هذا وقد أخذ الآن فى الطول . . . الخ » ونقل ابن فضلان عن ملك البلغار « أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوماً يقال لهم ويسو ؛ الليل عندهم أقل من ساعة » .

والغريب أن ابن فضلان لم يكتب فى رسالته شيئاً عن نتائج هذه الرحلة من الوجهتين السياسية والحربية ؛ فلسنا ندرى هل ساعد المسلمون البلغار فى تشييد الحصون المطلوبة أم لا . وأكبر الظن أن ملك البلغار كان يريد بناء تلك الحصون ليحتمى فيها من ملك الخزر بوجه خاص . وكان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار وكانت مملكتهم عند مصب نهر الفولجا ولكنهم كانوا من أتباع الديانة اليهودية وكانوا يعدون ملوك البلغار تبعاً لهم . وعلى كل حال فإن رحلة ابن فضلان من أقدم ما وصل إلينا عن بلاد الروسيا . بل إننا لا نعرف عن رحالة سبقوه فى هذه الجولة ما خلا أوتير Ohther النرويجى الذى زار الاقليم الواقع شمالى الروسيا حول البحر الأبيض الروسى ؛ وذلك قبل رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار بنحو ستين سنة .

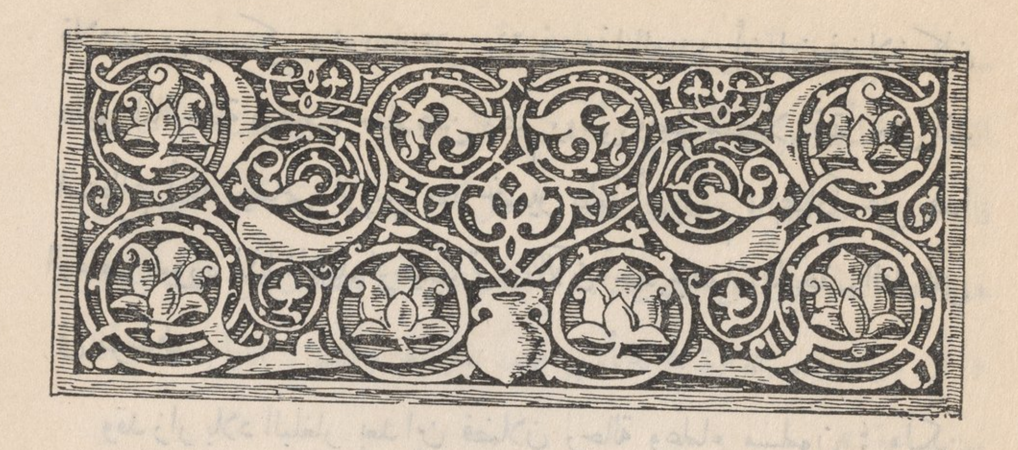
وقد وصف ابن فضلان بعض قدماء الروس الذين شاهدهم فى مكان على نهر الفلجا حين قدموا للتجارة مع البلغار . وكتب المستشرق الروسى

فلاديمير مينورسكى V. Minorsky فى هذا الصدد أن ابن فضلان كان دقيق الملاحظة فوصف حفلة دفن زعيم روسى وصفاً مفصلا دقيقاً حتى لقد استطاع أحد رسامى الروس منذ خمسين عاماً أن يرسم ، اعتماداً على هذا الوصف صورة لهذا المشهد الرهيب تزين الآن أحد جدران المتحف التاريخى فى موسكو.

وقد زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان رحالة وعلماء مسلمون ؛ ولكن معظمهم لم يدوّن عنها شيئاً كثيراً . ومنهم عبد الله أبو حامد الأندلسى الغرناطى صاحب كتاب « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » وقد زار بلاد البلغار سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) وصحب قاضيها يعقوب بن النعمان ؛ وذكر أن هذا القاضى ألّف كتاباً فى تاريخ البلغار ؛ ولكنا لا نعرف عن هذا الكتاب شيئاً . على أن أبا حامد الأندلسى نفسه لم يكتب عن رحلته إلا بضع قصص ضئيلة الشأن نشرها المستشرق دورن (١) B. Dorn



(١) راجع Mélanges Asiatiques, t. VI (Saint-Petersbourg 1869)



أبو دُلَف

هو أبو دلف الخزرجي الينبوعي مسعر بن مهلهل . كان شاعراً وأديباً ورحالة ؛ اتصل بالأمير الساماني نصر بن احمد . وأوفده هذا الأمير إلى الصين حول سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) مع بعثة كان أحد الأمراء الصينيين قد أرسلها إلى البلاط الساماني ليخطب ابنة أمير بخارى . وقد زار أبو دلف بلاد الهند ، وآخر نقطة كانت تصل إليها السفن الإسلامية .

ولسنا نعرف عنه شيئاً كثيراً ما عدا اتصاله بالصاحب اسماعيل بن عباد وزير بني بويه . وهو الذى قدم إليه أبو دلف قصيدة طويلة فى حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم . والمعروف أن اسم « بنى ساسان » أطلق على قوم من العيارين المستهترين والشطار المحتالين ، كانوا يطوفون الأقاليم ، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال (راجع مادة ساسان فى دائرة المعارف الإسلامية وما ذكر فيها من مراجع) .

وفى بعض أبيات هـذه القصيدة الطويلة إشارة إلى الرحلات والأسفار الطويلة . ومن ذلك الأبيات الآتية منقولة من كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبى :

ومن كان من الأحرا ر يسلو سلوة الحر
ولا سيما فى الغـربة أودى أكثر العمـر
وشاهـدت أعاجيبا وألوانًا من الدهـر
فطابت بالنـوى نفسى على الإمساك والفطر
على أنى من القوم الـ بهاليل بنى الغـر
فنحـن الناس كل النا س فى البر وفى البحر
أخـذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل فى كـ ل أرض خيلنـا تسرى
إذا ضاق بنا قطـر نزل عنه إلى قطـر
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والـكفر
فنصطاف على الثلـج ونشتو بلد التمـر

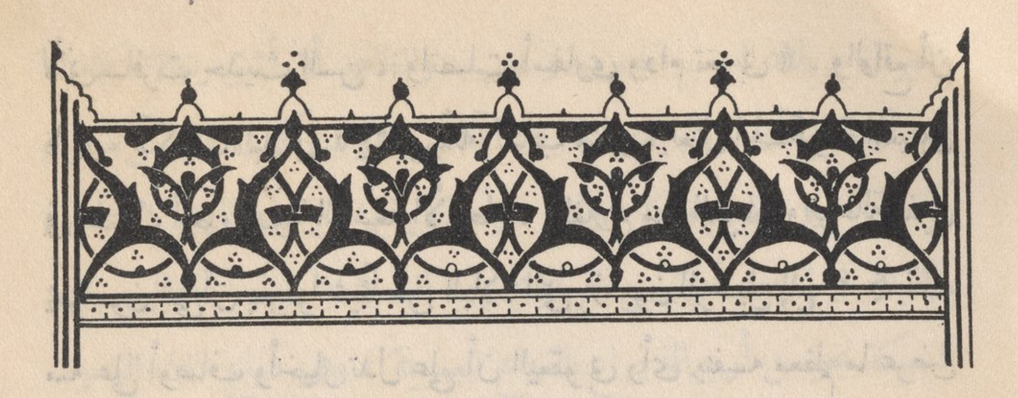
وقد حفظ لنا القزوينى وياقوت وابن النديم مقتطفات يظن أنها من وصف أبى دلف لرحلته فى الصين والهند[١] . وهو وصف يشهد — على إيجازه — بأن هذا الأديب الرحالة كان دقيق الملاحظة . وحسبنا مثلا أنه فطن إلى أن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلاد الأخرى ، ولا سيما

(١) راجع مادة مسعر بن مهلهل فى دائرة المعارف الإسلامية

فى إيران وملبار ، ولكن الأوانى الصينية كانت تفضل فى الأسواق على كل ما يصنع تقليداً لها . وقد نشر هذا الوصف سنة ١٨٤٥ ومعه ترجمة لاتينية بعناية المستشرق فون شلوزر Kurd von Schloezer ثم ترجمه المستشرق فراند Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية التى نشرها عن الشرق الأقصى وخصه ماركارت M. J. Marquart بدراسة وافية فى مجموعة المقالات التى كتبت ذكرى وتكريماً للمستشرق ساخاو (Festschrift Sachau) . وفضلا عن ذلك فإن المستشرق وستنفلد F. Wüstenfeld كان قد كتب فى منتصف القرن الماضى مقالا فى مجلة علم تقويم البلدان المقارن درس فيه ما كتبه أبو دلف عن القبائل التركية[١]



(١) راجع F. Wüstenfeld: Des Abu Dolef Misar Bericht über die türkischen Horden (Zeitschr. für vergl. Erdkunde, I, Magdburg 1842)



جغرافيو القرنين الثالث والرابع

بعد الهجرة

(٩ — ١٠ م)

بدأ المسلمون فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) يؤلفون فى تقويم البلدان ، ويصفون أجزاء إمبراطوريتهم وما يجاورها من الأقاليم وامتاز الجغرافيون فى القرن الرابع الهجرى بأن معظمهم كانوا رحالة ، جمعوا كثيراً مما كتبوه بوساطة المشاهدة والاختبار والأسفار .

*
* *

فاليعقوبى توفى فى نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، بعد أن قام برحلات طويلة فى أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب . وقد أفاد من هذه الرحلات فيما كتبه فى التاريخ والجغرافيا . وذكر ذلك فى مقدمة « كتاب البلدان » . قال : « إنى عنيت فى عنفوان شبابى ، وعند احتيال سنى وحدة ذهنى ، بعلم أخبار البلدان والمسافة ما بين كل بلد و بلد

لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ودام تغربى » . والواقع أن قارىء « كتاب البلدان » يشعر بأنه كتاب مثالى ، لعمال الحكومة المعينين فى مختلف أنحاء الدولة الواسعة الأرجاء ، ولغيرهم من التجار والرحالة الذين يحرصون على أن يعرفوا شيئاً عن البلاد التى يزمعون الرحيل إليها ؛ كما يقف منه على أوصاف وأخبار تدل على أن اليعقوبى رأى بنفسه معظم ما عرض للكتابة فيه، مع أنه تحاشى ذكر ما لقيه فى أسفاره من المشاهدات والتجارب .

*
* *

أما الاصطخرى فعاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . واعتمد فى تصنف مؤلفيه : « كتاب الأقاليم » و « المسالك والممالك » على رحلاته لطلب العلم والمعرفة فى الآفاق الإسلامية وعلى ما نقله عن كتاب « صور الأقاليم » لأبى زيد البلخى . وقد وضح الإصطخرى كتابه الأول بالخرائط .

*
* *

وعاش المسعودى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وقد نشأ فى بغداد ، ثم أقبل على السياحة لطلب العلم وجمع الحقائق الجغرافية والتاريخية . فطاف فى إيران ، ثم رحل إلى الهند وجزيرة سرنديب ، ثم رافق جماعة من التجار فى رحلة إلى بحار الصين ، وجال بعد ذلك فى المحيط الهندى وزار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان ، ثم قام برحلات فى إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى والشام

والعراق و بلاد العرب الجنوبية ومصر . والظاهر أن أشق رحلاته كانت في المحيط الهندى شرقى إفريقية ؛ فقد كتب : «وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن ، وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالاوال ، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع بالذراع العمرية ، وهى ذراع ذلك البحر . والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع . وربما بدا بهذا البحر فيظهر طرفاً من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع . وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من ممر السهم . والمراكب تفزع منه بالليل والنهار وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك . . . . »

وقد تحدث المسعودى عما لقيه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاته فى مؤلفات تاريخية ضخمة ضاع أكثرها بسبب ضخامة حجمها وقلة انتشارها . أما أعظم ما وصل إلينا منها فكتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذى اختصر فيه كتابين كبيرين له . وقد فرغ من تصنيفه سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) . والكتاب يجمع بين التاريخ والجغرافيا والسياسة والعمران ؛ بل يتضمن معظم ضروب العلم فى عصره . ويمتاز على غيره من الكتب العربية بكثرة ما فيه من أخبار الأمم التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، وبندرة بعض هذه الأخبار فى كتب سائر المؤلفين . من ذلك عناية المسعودى ببيان الطرق البرية للسفر إلى بلاد

الصين ، على حين أن الطرق البحرية إلى تلك البلاد هى التى عنى بها سائر من كتبوا فى ذلك . ومن ذلك أيضاً عنايته بالتعليل لبعض الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، مثل قوله إن العاج كان يجلب فى كثرة من شرقى إفريقية إلى الصين ، وإن إقبال الصينيين على استيراده هو الذى جعله نادراً وغالى الثمن فى الأقطار الإسلامية . ولكن كتابة المسعودى لم تخل من العيوب المعهودة فى تأليف معظم الجغرافيين والمؤرخين أيام العصور الوسطى ؛ ومن تلك العيوب الاستطراد ، ونقل الخرافات والأخبار السطحية بدون تمحيصها بالنقد العلمى أو بالرجوع إلى المصادر الأولى ، ذلك فضلا عن إغفال منهج معين فى الدراسة .

وقد أشار المسعودى فى مقدمة « مروج الذهب » إلى أسفاره الطويلة فقال : « على إنا نعتذر من تقصير إن كان ، ونتنصل من إغفال أو عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار ، وتارة على متن البحر وتارة على ظهر البر ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأمم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والرانج ، فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والهوات والطالقان ، وطوراً بالشام ؛ فسيرى فى الآفاق سرى الشمس فى الإشراق كما قال بعضهم :

تيمم أقطار البـــــــلاد فتارة
لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغرب

سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى

إلى أفـق ناء يقصر بالركب »

كذلك كتب فى تلك المقدمة : « ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله . وليس من لزم جهة وطنه ، وقنع بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه ، كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه » .

والحق أن أوجه الشبه كثيرة بين المسعودى وهيرودوت . وحسبنا أن ابن خلكان وصف المسعودى بأنه كان إماماً للمؤرخين ، وأن هيرودوت انعقدت له مثل هذه الإمامة ، حتى سمى أبا التاريخ .

*
* *

ومن الجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى . وقد ظل يتجول فى البلاد الإسلامية نحو ثلاثين سنة . ولقى الاصطخرى ، فطلب منه هذا أن يراجع كتابه « المسالك والممالك » ففعل ، ولكنه ما لبث أن أخرج كتاباً بنفس الاسم ، اعتمد فيه على ما كتبه الاصطخرى فى كتابه . ولسنا نعرف شيئاً كثيراً عن سيرة حياته عدا إنه غادر بغداد سنة ٣٣١ هـ (٩٤٣ م) ، طلباً لدراسة البلاد والشعوب ، ورغبة فى الارتزاق من باب التجارة . فطاف فى العالم الاسلامى من شرقيه إلى غربيه ويبدو أنه شاهد كل ما كتب عنه وعاينه ، ما خلا الصحراء الكبرى ، فأنه لم يشاهد إلا جزءاً منها . وقد كتب فى هذا المعنى :

« وأعانني على تأليفه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه فى طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها » : وقد وصف ابن حوقل بلرم عاصمة صقلية وصفاً عظيم الشأن جليل القيمة لأنه ليس أقدم وصف إسلامى لهذه المدينة فحسب بل لأنه يشير إلى أسلوب ساذج اتبعه المسلمون حينئذ فى تقدير سكان المدن ومبلغ عمارها فى تلك العصور التى لم تعرف فيها الإحصائيات الرسمية . ومما كتبه فى وصفها : —

« و ببلرم طائفة من القصابين والجزّارين والأساكفة . وبها للقصابين دون المائتى حانوت لبيع اللحم . والقليل منهم فى المدينة برأس السماط . و يجاورهم القطانون والحلاجون والحذاؤون و بها غير سوق صالح . و يدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم . وذلك أنى حزرت المجتمع فيه إذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفاً لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة وكل صف منها يزيد على مائتى رجل » .

وقد عجب ابن حوقل لكثرة المساجد فى صقلية . وسأل عن ذلك ، فأخبر « أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يشاركه فيه غير أهله وغاشيته » . وكذلك لاحظ كثرة المعلمين فيها وأن جنونهم يفوق جنون المعلمين فى كل بلد « و إنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد » ؛ وذلك لأن المعلمين فى صقلية كانوا يعفون من الجهاد والقتال . والحق أن ابن حوقل كان قاسياً على أهل صقلية وعلى طائفة المعلمين بوجه خاص . فهو

يزعم — سامحه الله ! — « أن المعلم أحمق محكوم عليه بالنقص والجهل والخفة وقلة العقل » . ونراه ينتقص أهل صقلية لاحترامهم المعلمين فيقول : « ومن أعظم الرزية وأشد البلية أن جميع أهل صقلية ، لصغر أحلامهم ، ونقص درايتهم ، و بعد أفهامهم ، يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم » .

واتصل ابن حوقل بالفاطميين . وقد ذهب المستشرق الهولندى دوزى Dozy إلى أن هذا الرحالة كان يتجسس و يعمل لحساب الفاطميين فى الأندلس ؛ فانهم كانوا فى البداءة يتطلعون إلى الاستيلاء على تلك البلاد ؛ ولعلهم كانوا يسعون إلى جمع المعلومات عنها . وقد أشار دوزى إلى ما كتبه ابن حوقل فى الحط من شأن الفرسان الأندلسيين وشرح ما كانت عليه البلاد من ضعف ، ليحث الخليفة الفاطمى على أن يقدم على غزوها . قال ابن حوقل فى هذا الصدد : « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، و بعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها فى نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها . . . وليس لجيوشهم حلاوة فى العين ؛ لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها . وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال ، فان أكثر حروبهم فتصرف على الكيد والحيلة . وما رأيت ولا رأى غيرى بها إنساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه فى الركابين » .

ويذكرنا هذا بما كان للرحالة الفرنسى ڤولنى Volney من شأن فى فكرة استيلاء الفرنسيين على مصر ، مع أنه لم ينصح لحكومته الإقدام على ذلك[١]. فقد نشر هذا الرحالة كتاباً عن أسفاره فى مصر سنة ١٧٨٧، فقضى على الأساطير السائدة عن قوة المماليك ومناعتهم ، وأشار إلى جهلهم طرق الحرب الحديثة ، و إلى سهولة فتح مصر وخلو الاسكندرية من الحصون والاستحكامات والأسلحة .

*
* *

ومن أعظم الجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى (١٠ م) المقدسى ، أبو عبدالله ، المعروف بالبشارى . وقد طاف فى الأقاليم الإسلامية ، وقال عن نفسه إنه لم يظهر كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » حتى بلغ الأربعين . وأطنب فى ذكر تجاربه قائلا : « فقد تفقهت وتأدبت ، وتزهدت وتعبدت . . . وخطبت على المنابر ، وأذنت على المنائر ، وأممت فى المساجد ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتى العصائد ... وسحت فى البرارى ، وتهت فى الصحارى ... وملكت العبيد ، وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق ، وقطع على قوافلنا الطرق ... وسجنت فى الحبوس . وأخذت على أنى جاسوس ، ومشيت فى السمائم والثلوج » ويلوح لنا أن المقدسى كان يعمد فى رحلاته إلى التنكر وتغيير اسمه والدخول فى الطوائف المختلفة لدراسة بيئاتها .

(١) Shafik Ghorbal: The Beginnings of thc Egyptian Question The Rise of Mehemet Ali p 4.

والحق أن المقدسى يكاد يزعج القارىء باسرافه فى وصف مزايا كتابه وذكر ما عانى فى سبيل تأليفه . مثل قوله : « وما تم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان ، ودخولى أقاليم الإسلام ، ولقائى العلماء ، وخدمتى الملوك ، ومجالستى القضاة ، ودرسى على الفقهاء ، واختلافى إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ، ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها ، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها . . . الخ » .

والظاهر أن المقدسى كان يعتمد على الرحلة والمشاهدة فى جل كتاباته ، وأن هذا هو الذى منعه من التعرض لوصف الأقاليم التى يسكنها غير المسلمين والتى لم يتجه إليها . ولعل ذلك أيضاً مما جعله ينتقص كتاب أبى زيد البلخى فيرميه بأنه « لم يدوّخ البلدان ولا وطىء الأعمال » .

وكان المقدسى بوجه عام دقيق الملاحظة ، باحثاً ناقداً ، يتحرى تمحيص ما ينقل . وكان يعنى بالأخبار الطريفة والعادات الشاذة . من ذلك ذكره أن جامع بغداد « كانت على أبوابه مياضىء بالكرى » . وقد بحثنا طويلا فلم نوفق إلى العثور على أمثلة تاريخية أخرى لمراحيض يدفع القوم أجراً لاستعمالها ، كما نرى فى هذه الأيام . ومنه أيضاً تلخيصه الكلام على عدن بأنها « دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات » .

ومن الجغرافيين الذين كتبوا فى القرن الرابع الهجرى ، وبذلوا الفوائد بفضل رحلاتهم الطويلة ، محمد التاريخى الأندلسى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) . ألّف كتاباً فى وصف أفريقية والمغرب . وكان هذا الكتاب من أكبر المراجع التى اعتمدها البكرى فى كتابه « المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب » .

*
* *

ومن العلماء المصريين الذين برزوا فى عصر الدوله الفاطمية الحسن بن محمد المهلبى . وقد كان معاصراً للخليفة العزيز بالله . و يبدو أنه قام برحلة طويلة فى بلاد السودان ، وألّف للعزيز سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) كتاباً فى الطرق والمسالك ، امتاز بأنه أول كتاب عنى بوصف إقليم السودان وصفاً دقيقاً ؛ ولكنه لم يصل إلينا .

*
* *

و يظهر أن السفر من العالم الإسلامى إلى الشرق الأقصى فى القرن الرابع الهجرى لم يكن وقفاً على المسلمين فقط . فقد جاء فى « الفهرست » لابن النديم أن هذا المؤلف كان يستقى أخبار الصين حول سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) من راهب نجرانى ، بعثه رئيس طائفته إلى تلك البلاد ومعه خمسة من القساوسة المسيحيين لرعاية النصارى الموجودين فيها ؛ فأقاموا ست سنين ثم عاد الراهب وزميل له ، وأخبرا عن هلاك النصارى فى الصين وخراب كنيستهم .

*
* *

وقد ظهر فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) علم من أعلام الجغرافيين المسلمين . هو عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، صاحب « كتاب المسالك والممالك » غير أن هذا المؤلف لم يدوّن فى هذا الكتاب الكبير نتائج أسفاره ورحلاته و إنما اعتمد على ما جمعه من الآثار العلمية التى خلّفها من سبقوه .





قصة الفتية المغررين

اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس . وأشار أصحاب هذه النظرية إلى وجود كلمات عربية فى لغـة هنود أمريكا ، وإلى أن كولومبس وجد فى رحلته الثالثة زنوجاً وذهباً إفريقياً فى جزائر الهند الشرقية . وأن مدنية بعض الجماعات الوطنية فى أمريكا تشبه المدنية الإسلامية إلى حد كبير[1] .

ولسنا نعرض هنا لبحث هذه النظرية ، ولكننا لا نشك فى أن العرب اتخذوا الأساطيل فى المحيط الأطلسى للدفاع عن ملكهم فى المغرب والأندلس. وطبيعى أنهم عرفوا شيئاً كثيراً عن سواحل هذا المحيط وعن الجزائر غير

---

(١) راجع مقال « عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب » للأب أنستاس مارى الكرملى (عدد ٢ مجلد ١٠٦ ؛ فبراير سنة ١٩٤٥ من مجلة المقتطف) .

البعيدة عنها . ولكن فى بعض المصادر التاريخية العربية ما يشهد بأنهم حاولوا النفوذ إليه والتوغل فيه .

ومن ذلك حديث فتية من مدينة لشبونة حول القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، قاموا فى المحيط برحلة جريئة ، وعادوا منها بعد تجارب قاسية وأهوال شديدة . ولم يصلنا من أخبار هذه الرحلة إلا ما كتبه الشريف الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . وقد علق عليه الأمير شكيب أرسلان فى كتابه « الحلل السندسية » ، والأستاذ عبد الحميد العبادى فى مقال عن قصة أولئك الفتية المغررين (أو المغربين ؟) قال الإدريسى : « ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه و إلى أين انتهاؤه . . . ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد . وذلك أنهم اجتمعوا ، ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الريح الشرقية (أى هبوبها) فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً . فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش (أى الصخور التى لا يكاد يسترها الماء) قليل الضوء ؛ فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر إليها . فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين

ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوماً ، إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها . فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها فى دار ، فرأوا بها رجالا شقراً ، زعروا شعور رؤوسهم ، شعورهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام . ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى . فسألهم عن حالهم ، وفيم جاءوا ، وأين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك : فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك . فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب و يقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدا جرى الريح الغربية فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جىء بنا إلى البر ،

فأخرجنا وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ؛ فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلوا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا . لا ؛ فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وا أسفى ! . فسمى المكان إلى إلى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب » .

وعلى كل حال فإن هؤلاء الفتية استطاعوا العودة إلى لشبونة ، كما يؤخذ من سياق الكلام فى الإدريسى ، وحدثوا أهلها بأخبار رحلتهم ؛ ولكن مواطنيهم لم يروا فيهم إلا شباباً مخاطرين مغررين (أو مغربين ، من الاتجاه إلى المغرب ؟) حتى عرف الدرب الذى كانوا يسكنونه بهذا الاسم .

***

وإن تكن معالم هذه القصة صادقة ، فإننا لا نستطيع أن نتتبع سير هؤلاء الفتية لنتبين الجزر التى وطئتها أقدامهم فى هذه الرحلة ؛ ولكننا نرجح أنهم وصلوا أولا إلى مقربة من إحدى جزائر أزور Azores التى تبعد عن غربى البرتغال نحو ١٣٧٠ كيلومتراً والواقعة بين خط ٣٧ وخط ٤٠ من العرض الشمالى وبين خط ٢٥ وخط ٣٢ من الطول الغربى . والظاهر أنها لم تكن مجهولة عند الفينيقيين والقرطاجنيين والنورمنديين والعرب ، وإن نسب كشفها فى القرن الخامس عشر الميلادى إلى الفلمنكيين فى رواية وإلى

البرتغاليين فى قول آخر . ولما انحدر الفتية إلى الجنوب وساروا اثنى عشر يوما فالمحتمل أنهم وصلوا إلى جزر ماديرا . وقد نقل الأستاذ عبد الحميد العبادى عن بعض العلماء الأوربيين أن بهذه الجزيرة كثيراً من المعز تقتات بنوع من العشب ، هو السبب فى مرارة لحومها . أما الجزيرة التى انتهى إليها المغرورون وقبض عليهم فيها ، فلعلها إحدى جزر الخالدات أو كنارى، التى تبعد عن الساحل الشمالى الغربى لإفريقية بنحو مائة كيلومتر والواقعة بين خطى ٢٧و٢٩ من العرض الشمالى و بين خط ١٣ وخط ١٨ من الطول الغربى . والراجح أن هذه الجزائر كانت معروفة عند الفينيقيين ثم العرب وذلك قبل أن يكشفها الأور بيون ثانية فى القرن الرابع عشر الميلادى .

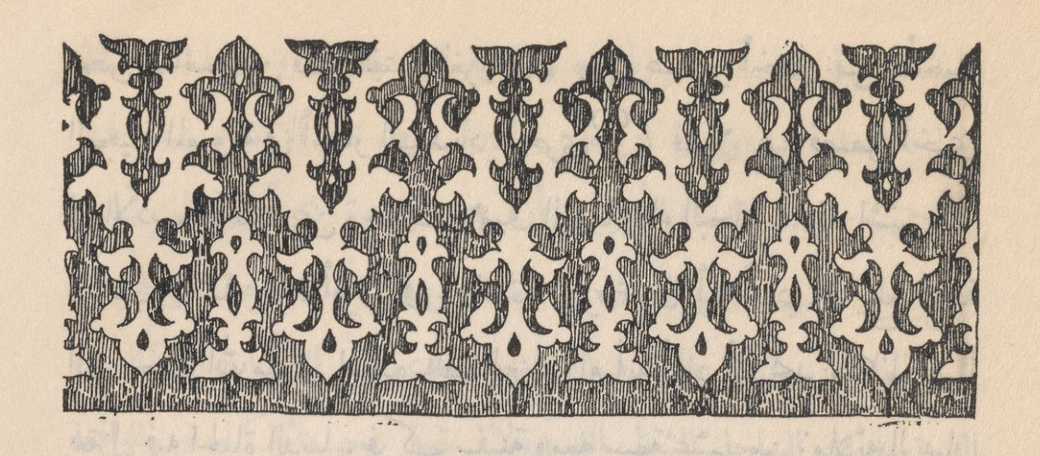
ولعل هذه القصة لم تكن مجهولة فى العصور الوسطى ؛ بل لعل كولومبس كان يعرفها ، و يعرف قصصاً أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه ، ومن روايات بعض البحارة فى السفن التى كانت تسيرها بعض البيوت التجارية إلى ساحل أفريقية الغربى و إلى بعض جزر المحيط الأطلسى ، لجلب الذهب والعاج والأحجار الكريمة وغير ذلك . وكانت تلك البيوت التجارية تخفى أعمالها استئثارا بالكسب ، واحتكارا للتجارة مع تلك الأصقاع .

وأكبر الظن أن هذه القصة أساس رحلة تنسب إلى راهب إيرلندى اسمه القديس براندان . توفى سنة ٥٧٨ م ؛ ولكن حديث رحلته لم يظهر إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى . والأرجح أنه خرافة ، قامت على

بعض عناصر من قصة الفتية المغررين ، وعلى عناصر أخرى من الأخبار العجيبة المعروفة فى أسفار السندباد البحرى[١] ، فضلا عن قصص أخرى فى الأدب الكلتى عن رحلات وهمية إلى ما وراء البحار . وقد اشتهر هذا الراهب بانشاء عدة أديرة فى إيرلندة . ويزعمون أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جعلها الله مأوى لعباده الصالحين . أو أنه أراد أن يجد مكانا قصياً يعتزل فيه الحياة الدنيا ، فركب سفينة ومعه سبعة عشر من زملائه الرهبان يقصدون إحدى جزر المحيط الأطلسى . ولعلهم وصلوا إلى جزيرة من جزر الخالدات ؛ ولكنهم لم يستقروا بها بل عادوا إلى إيرلندة . وقص براندان ما شاهد من العجائب والغرائب فى قصيدة طويلة يظن النقاد أنها ترجع إلى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر بعد الميلاد . وقد ظل القوم يعتقدون بوجود جزيرة يطلقون عليها اسم هذا القديس ، ويظنونها غربى جزائر الخالدات ؛ بل كانوا يرسلون البعثات لكشفها حتى بداءة القرن الثامن عشر .



(١) راجع J. de Goeje : La légende de saint Brandan (tirée des actes du 8e Congrès international des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et à Christiania, Leyde. 1890)



محمد بن قو سلطان مالى

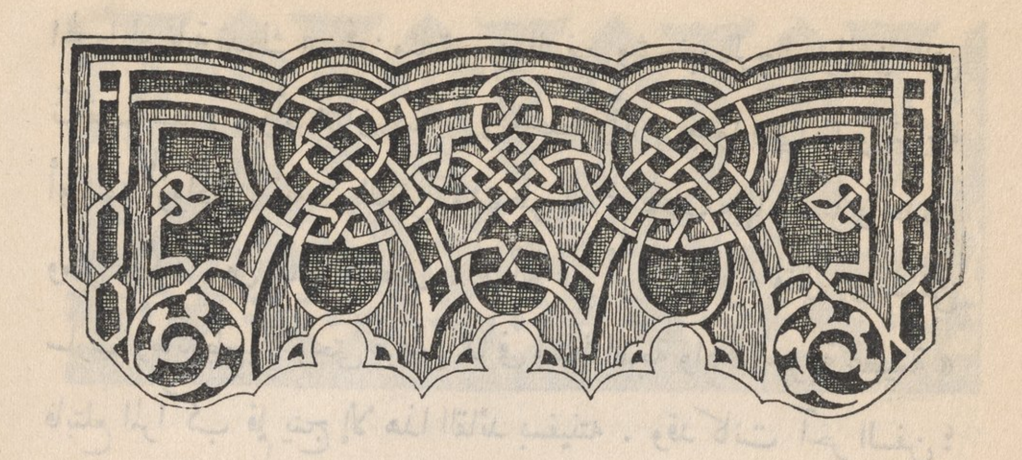
ومن قصص الرحلات الإسلامية المجهولة حديث سلطان مسلم ركب المحيط الأطلسى لكشف غوامضه ؛ وقد جاء ذكره فى كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) عند الكلام على مملكة مالى فى السودان الغربى جنوبى بلاد المغرب .

و بيان ذلك أن الملك منسا موسى بن أبى بكر ملك مالى مر بمصر فى طريقه إلى الحج فى عصر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) فأوفد السلطان الناصر أحد كبار موظفى القصر لاستقباله . واحتفى به الأمراء المصريون[١] ، واستفسروا منه عن أمور كثيرة فى بلاده ، ولا سيما استخراج الذهب والنحاس . كما سأله أحدهم عن سبب انتقال الملك إليه ، فأجاب بأن ابن عمه السلطان السابق محمد بن قو كان يظن أن « البحر

(١) أنظر تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٠ — ٢٠١

المحيط له غاية تدرك » فجهز مئات من السفن وشحنها بالرجال والمؤن التى تكفيهم سنين ، وأمرهم أن يسيروا فى المحيط وألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم . فغابت السفن مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحدة . ومثل قائدها بين يدى السلطان ، فسأله عن أمر زملائه ؛ فقال إن السفن سارت زماناً طويلا وحتى عرض لها فى وسط اللجة وادٍ له جرية عظيمة » فابتلع المراكب فلم ينج إلا هذا القائد بسفينته . وقد كانت آخر السفن ؛ ولكن السلطان لم يصدق هذا الحديث ؛ أو لعله أراد أن يتبين نصيبه من الصحة ، فأعد ألفى سفينة للرجال وألفاً للأزواد ؛ واستخلف ابن عمه منسا موسى فى حكم البلاد ؛ وأقلع بنفسه على رأس حملته الاستكشافية العظيمة . فكان ذلك آخر العهد به و بمن معه .





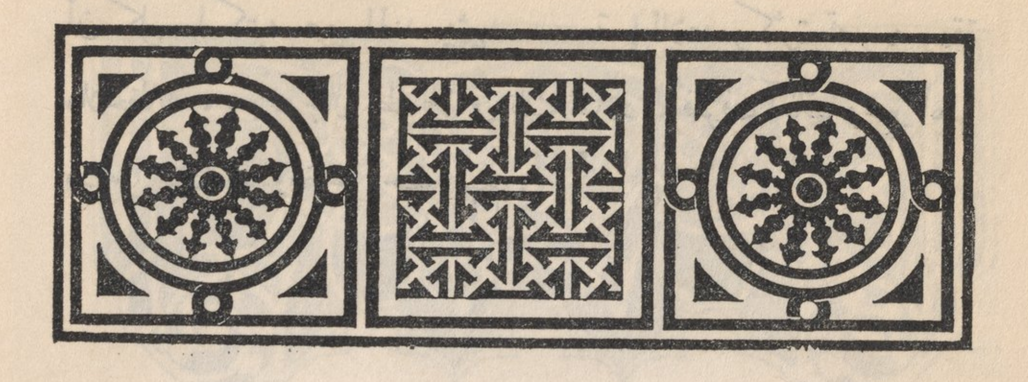
البيرونى

من العلماء المسلمين الذين كان للرحلات أكبر الفضل فى علمهم أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ ﻫ (١٠٤٨ م) . وقد امتاز بالاطلاع الواسع ، وروح النقد العلمى الدقيق ، والعمق فى التفكير ؛ فحاز قصب السبق فى الفلسفة والفلك والعلوم الرياضية والتاريخ وعلوم اللغة وتقويم البلدان . وامتدت شهرته فى العصور الوسطى إلى أوربا .

ولد البيرونى ونشأ فى إقليم خوارزم . ثم أتيح له بعد ذلك أن يصحب السلطان محمود الغزنوى فى فتوحاته بالهند . وقام برحلات طويلة فى تلك البلاد ، وتعلم لغاتها ، وضبط مواقع مدنها ، وأصلح بعض البيانات الجغرافية الخاطئة ، التى كانت مدوّنة عنها ، وأفاد مما جمعه خلال أسفاره فى تأليف كتابه «تاريخ الهند» ؛ ولا سيما أنه كان يقبل على البحث والتنقيب وكان إسلامه لا يمنعه من الإخلاص فى الحكم على غير المسلمين . والحق

أن كل ما كتبه عن الهند يشهد بسعة إطلاعه وكثرة تجاربه ودقة ملاحظاته ، وبأنه جال طويلا فى تلك البلاد ، فعرف آفاقها وخبر أهلها ودرس عاداتهم ومظاهر حضارتهم .





ناصر خسرو

ولد ناصر سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) فى بلدة من أعمال بلخ وتأدب أحسن تأدب . وقام فى شبابه بأسفار عديدة فى أنحاء إيران وتركستان والهند و بلاد العرب ثم استقر فى منصب كبير فى ديوان السلاجقة بمدينة مرو . وظل يعيش عيشة ترف و بطالة حتى سنة ٤٣٧ هـ (١٠٤٥ م) ؛ فنراه يضحى بمنصبه و يبدأ حياة جد وسفر وعلم وتقوى . وهو يذكر فى كتاباته أن السبب فى هذا التحول رؤيا ظهر له فيها شيخ طلب إليه أن يكف عن شرب الخمر وعن حياة اللهو والمجون . فسافر لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة فى الشرق الأدنى بين عامى ٤٣٧ و ٤٤٤ هـ (١٠٤٥ — ١٠٥٢) .

ولما عاد إلى وطنه كان قد ترك مذهبه السنى ، وأصبح من أشد دعاة الاسماعيلية والمتعصبين للفاطميين . ولا عجب فإنه غادر إيران فى

وقت انتشرت فيه الاضطرابات واشتد النزاع بين أمراء الأقاليم المختلفة ؛ ورأى نفس البؤس فى البلاد التى زارها ما خلا مصر ؛ فقد وجد فيها رخاءً عظيما وأسواقاً عامرة وتحفاً فنية نادرة وهدوءاً شاملا . وظن ناصر خسرو أن الفضل فى رخاء وادى النيل إنما يرجع إلى الدولة الفاطمية ومذهبها الاسماعيلى ، وأن هذا المذهب كفيل بإنقاذ العالم الإسلامى ؛ فلم يلبث ناصر أن اتصل ببعض رؤساء الشيعة الاسماعيلية فى مصر . والظاهر أن الخليفة المستنصر بالله أحسن استقباله وكلفه بأن يدعو لمذهب الاسماعيلية فى خراسان . ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذه الدعوة فاضطهدوا ناصر خسرو ، واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر ، حيث توفى سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١) .

وخلف هذا الرحالة وصفاً دقيقاً لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولا فأولا وأنه كان يعنى بالاتصال بالشعوب التى يمر بها ، ويتفهم مظاهر الحضارة التى يشاهدها . وحسبنا أن نشير هنا إلى وصفه مدينة القاهرة ، وكلامه عن حضارة مصر فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق ، و إلى وصفه الحرم الشريف بالقدس .

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية . وأصبحت مصدراً أساسياً فى دراسة الحضارة الإسلامية فى الشرق الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى والحق أن وصف مصر فى رحلة ناصر خسرو يعد من أكثر المصادر التاريخية

امتاعاً وأعظمها شأناً فى بيان حال البلاد قبل القحط أو « الشدة العظمى » التى حلت بها فى نهاية عصر الخليفة المستنصر [١] .

ولا عجب فإن هذا الرحالة لم يكن سائحاً عابراً ؛ بل أقام فى مصر نحو أربع سنوات ودوّن مشاهداته بدقة و إسهاب ، فوصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو وعن العلماء والفقهاء ودعاة الفاطميين .

واستطاع أن يدرس الحياة الاجتماعية عن كثب . فذكر مثلا أنه لم يعرف بلدا يستمتع بمثل ما ظفرت به مصر من الأمن والهدوء ، وأن الصناع والعمال فيها يمنحون أجوراً مرضية فيقبلون على العمل بسرور وانشراح ، على عكس ما فى الأقطار الأخرى من السخرة وما إلى ذلك ؛ كما أن مرتبات القضاة كانت كبيرة جداً ، ليتم الاطمئنان إلى عدالتهم و بعدهم عن المؤثرات المختلفة ولتقل حاجتهم إلى الناس .

ولاحظ ناصر أن التجار فى مصر كانوا يبيعون بأثمان محددة و إذا ثبت على أحدهم الغش فأنه يُركب جملا و يوضع فى يده جرس يدقه و يطاف به فى البلد و يرغم على أن يصيح بأعلى صوته : « لقد غششت وها أنا ألقى عقابى . جزى الله الكاذبين ! » . وكتب كذلك أن البقالين والعطارين وبائعى « الخردة » كانوا يأخذون على عاتقهم إعطاء الزجاج والأوانى الخزفية

---

(١) راجع كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ١٠ — ١٦

والورق لوضع ما يبيعونه فيها ؛ فلم يكن على المشترى أن يبحث عما يجعل فيه ما يقتنيه .

ومما ذكره أن ركوب الخيل كان وقفاً على الجند والمتصلين بالجيش ، على حين كان سائر الأهلين ينتقلون على حمير ذات سروج جميلة . وكان فى الفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير ؛ يشاهد المرء عدداً كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق .

وأطنب ناصر خسرو فى التدليل على ثروة البلاد ورخائها ؛ ووصف مدينة القاهرة وصفاً شائقاً ، وقدر أنها فى ذلك الوقت (فيما بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ هجرية أى ١٠٤٧ و ١٠٥٠ م) كانت قد نمت عمارتها ، وأصبح فيها ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للخليفة . وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير فى الشهر ؛ وليس بينها إلا القليل تبلغ أجرته فى الشهر دينارين . وكان فى القاهرة من الخانات والحمامات عدد وافر جداً وكلها ملك للخليفة أيضاً . والقصر الملكى وسط المدينة ، بينه و بين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها . وأسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة ، وهو يبدو من خارجها كالجبل . ولم يكن بالقاهرة سور محصن ؛ ولكن أبنيتها كانت أعلى من الأسوار المحصنة وفى كل منها خمس طبقات أو ست ؛ فكأنها القلاع الضخمة . وكانت البيوت مبنية بناء نظيفاً محكماً وكانت مفصولا بعضها عن بعض بحدائق ترويها مياه الآبار .

وانتقل ناصر خسرو بعد ذلك إلى وصف مدينة الفسطاط جنوبى

القاهرة ، حيث كانت الحركة التجارية والصناعية فأسهب فى الكلام على عظمتها و بيوتها الشاهقة وجوامعها الكبيرة وحدائقها الغناء وصناعتها الزاهرة ووصف الثروة فى أسواقها والازدحام فيها ؛ وقال إن الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الحلى ، حتى أن المشترى لا يجد فيها محلاً يجلس فيه .

وذكر هذا الرحالة فى مواضع عديدة من حديث رحلته قصصاً تشهد بالتسامح الدينى الذى عرف عن العصر الفاطمى ، و باطمئنان المسيحيين واليهود إلى عدل الخليفة وحكومته . من ذلك قصة تاجر مسيحى كان من أغنى الأثرياء فى مصر ؛ فلا يستطيع أحد أن يحصى أرزاقه وأملاكه وما له من السفن . وقد دعاه الوزير ذات يوم وأخبره أن الخليفة أقلقه وأهمه ما حل بالشعب من الضيق بسبب قلة المحصول ذلك العام ، ثم سأله عن مقدار القمح الذى يمكنه أن يبيعه أو يقرضه ، فأجاب التاجر بأن عنده من القمح ما يكفى مدينة مصر (الفسطاط) ست سنوات . وقد أعجب ناصر خسرو بما عرف عن الخليفة والحكومة من العدل الذى يسمح لمثل ذلك الرجل أن يمتلك مثل هذه الثروة وأن يصدق القول بشأنها بدون أن يخشى مصادرتها أو ضياع حقه فى جزء منها .

وامتاز ناصر خسرو بما عرف عن الإيرانيين من الذوق الفنى الجميل ؛ حتى أصبحت ملاحظاته وآراؤه عن الآثار والفنون فى رحلته مرجعاً أساسياً للمشتغلين بالفنون الإسلامية . فنراه يتحدث عن مراكز الصناعات

والفنون المختلفة ، ويصف المساجد ، والقصور والخانات وغير ذلك من مفاخر العمارة الإسلامية . وتحدث ناصر عن مدينة تنيس ، وأعجب بما كان ينسج فيها من قصب ملون لا ينسج فى أى مكان آخر قصب يوازيه فى الجودة والجمال ، وبقماش الأبوقلمون ، الذى يتغير لونه باختلاف ساعات النهار ، ويصدره المصريون إلى بلاد الشرق والغرب . كما أعجب بالكتان الذى كان ينسج فى أسيوط ويبدو للعين كأنه الحرير .

وأشار إلى صناعة الخزف فى العصر الفاطمى ؛ فقال إن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة ، وإن الخزف المصرى كان رقيقا وشفافا ، حتى لقد كان ميسوراً أن ترى من باطن الأناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه . وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور وسائر الأوانى ، وتزين بألوان مختلفة تختلف باختلاف أوضاع الآنية .

وكان ناصر خسرو شديد الإعجاب بسوق القناديل — بجوار جامع عمرو — فقال إنه لم يعرف مثله فى أى بلد آخر ، وإن التحف النادرة والثمينة كانت تحمل إليه من أصقاع العالم كله . وترجع هذه التسمية إلى أن سكان هذا الحى كان لكل منهم قنديل على باب مسكنه . والطريف أن ما وصل إلينا من التحف الفنية الفاطمية يؤيد تماماً ما كتبه ناصر خسرو فى هذا الميدان . وقد فصلنا الكلام على ذلك فى كتابنا « كنوز الفاطميين » .

ولا ريب فى أن هذا الرحالة أتيح له أن يدرس مصر دراسة طيبة خلال رحلته فيها ، وإن كان من المحتمل أن تعصبه الشديد للمذهب

الفاطمى قد يكون من أسباب إفراطه فى الإعجاب بثروة البلاد ورخائها وأمنها والتسامح الدينى فيها وازدهار فنونها وعدالة النظم الاجتماعية فيها .

والحق أن ناصر خسرو لم يكن شديد الاهتمام بالنظم الاجتماعية فى مصر فحسب ؛ بل نراه يعرض لما يصادفه من هذه النظم فى سائر البلاد التى تجوّل فيها . مثال ذلك ما كتبه عن إقليم الأحساء فى بلاد العرب . فقد أعجب بنظام الحكومة القرمطية فيه . وذكر أنه إذا أعسر أحد السكان فيه أقرضوه مالا يستعين به على تدبير أموره ، وأن الذى يستدين شيئاً لا يطالب بدفع ربح عنه ، وأن الغريب الذى يحسن إحدى الحرف يقرض عند وصوله إلى هذا الإقليم مبلغاً من المال يستعين به على شراء عدده . وإذا تهدمت دار أو مطحنة ، وعجز صاحبها عن إصلاحها ، فإن حكام الإقليم ينيطون ببعض عبيدهم إتمام هذا الإصلاح من غير أجر . وللحكومة فى الأحساء مطاحن تنفق عليها ويطحن الناس فيها قمحهم بالمجان . وقد سجل ناصر إعجابه بهذه النظم التى تذكرنا الآن ببعض الاتجاهات الاشتراكية فى العصور القديمة وفى العصر الحديث .

* * *

ودوّن ناصر فى أخبار رحلته أن السفر فى بعض أجزاء بلاد العرب لم يكن ميسوراً إلا إذا استأجر المسافر حارساً من أبناء القبيلة التى يمر بأرضها ليدله على الطريق ويحميه من اعتداء قطاع الطرق .

ومن طريف ما ذكره ناصر عن البيع والشراء فى أسواق البصرة أن

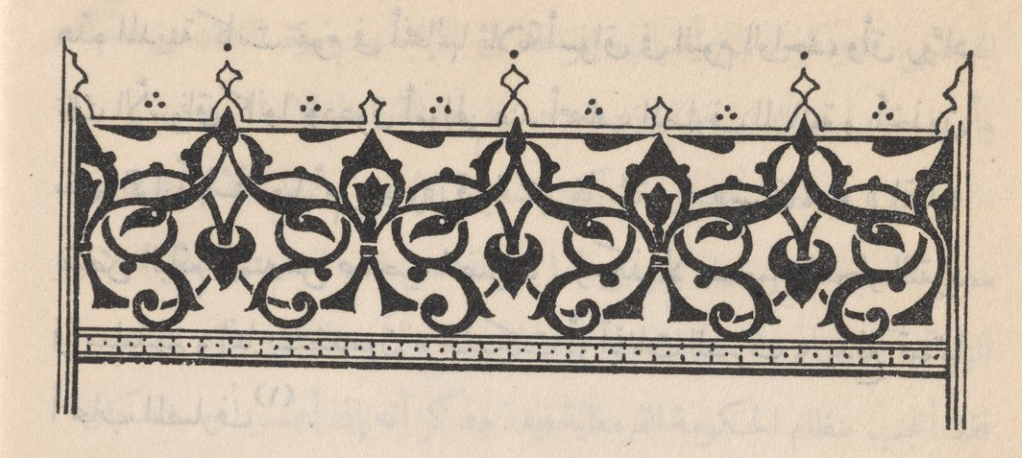
هذه المدينة كانت تقوم فى أنحائها ثلاثة أسواق فى اليوم الواحد، وأن روّاد تلك الأسواق كانوا يودعون أموالهم عند أصحاب المصارف المالية و يأخذون منهم إقراراً باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه «شيكا» أو « إذناً » يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف . وهكذا لا يستعمل التجار النقود فى معاملتهم و إنما يستخدمون « الشيكات أو أذنات الصرف » يدفع قيمتها أصحاب المصارف(١) .

ولاحظ ناصر خسرو فى مدينة طبس (بين نيسابور و إصفهان) أن المرأة لا تخاطب إلا زوجها أو قريباً لها وأنه إذا ثبت أن رجلا وامرأة لا قرابة بينهما قد دار بينهما حديث فإن جزاءهما القتل .

وصفوة القول أن رحلة ناصر خسرو فى الشرق الأدنى تميط اللثام عن كثير من نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى منتصف القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .



(١) انظر Nasiri - Khosrau : Sefer Nameh ص ١٢٩



الإدريسى

هو محمد بن محمد الشريف الإدريسى صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ولا ريب فى أنه من أعلام الجغرافيين المسلمين الذين كان للرحلات شأن عظيم فى آثارهم العلمية . ولد فى سبتة سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) . ودرس فى جامعة قرطبة ، ثم طاف فى الأندلس وشمالى إفريقية وآسيا الصغرى . ويقال أيضاً إنه زار فرنسا وانجلترا . ثم لبى دعوة الملك رجار Roger الثانى فنزل فى بلاطه بصقلية ، حيث كان التأثر بالمدنية الإسلامية لا يزال عظيما .

وكان رجار قد أراد — جريا على سنة كثير من الأمراء الشرقيين — أن يؤلف له كتاب شامل فى وصف مملكته وسائر الآفاق المعروفة فى ذلك العهد ، فجمع ما كتب المؤلفون فى هذا الميدان . ووقع اختياره على الشريف الإدريسى ليصنف له كتاباً فى وصف الكرة الأرضية الفضية التى صنعت

له مرسوماً عليها جميع الأقاليم المعروفة حينئذ . وطبيعى أن هذا الاختيار يشهد بما كان للمسلمين من تفوق فى العلوم والفنون فى ذلك العصر . وقد تم تأليف هذا الكتاب المسمى « نزهة المشتاق » قبل وفاة رجار سنة ٥٤٨ ﻫ (١١٥٤ م) وظل الكتاب ينسب إلى أمير البلاد فيقال « كتاب رجار» أو « الكتاب الرجاوى »

واستعان الإدريسى فى كتابة مؤلفاته الجغرافية الواسعة بما أفاده من رحلاته الخاصة ، وبما جمعه الرواد الذين أوفدهم الملك رجار إلى الأقاليم المختلفة لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها ، وبما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج فى السفن التى كانت تمر بموانئ صقلية ، إلى جنب ما استطاع الحصول عليه من بيانات عن البلاد المسيحية بفضل رعاية الملك رجار المسيحى . والواقع أنه ، بهذه البيانات ، امتاز على سائر الجغرافيين المسلمين فإن من سبقه منهم لم يستطع الكتابة على أوربا فى شيء من الدقة ، ولم يظفر بمشاهدات أولئك الرواد الذين أوفدهم الملك حتى إلى أقصى الأطراف مثل اسكندناوة . أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم إلى نقل ما كتبه هو فى هذا الصدد .

وطبيعى أيضاً أن يمتاز كتاب الإدريسى بغزارة مادته فى جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد بأنه ساح فى تلك الآفاق . أما فيما يخص الشرق فقد نقل كثيراً عمن سبقه من المؤرخين . ومع ذلك كله ، فإن ما كتبه عن مصر والشام وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والأراضى المطلة

على البحر الأدرياتيك يشهد بأنه أفاد كثيراً من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد . وكتب الإدريسى كثيراً فى الغوص عن اللؤلؤ فأحسن عرض هذا الموضوع وألم بأطرافه[١]

وأكبر الظن أن كتب الإدريسى وصلت إلى العلماء المسيحيين بصقلية فى العصور الوسطى ؛ ولكننا لا نظفر بدليل على ذلك ؛ لأن أقدم ترجمة نعرفها لكتابه « نزهة المشتاق » كانت إلى اللاتينية فى بداءة القرن السابع عشر الميلادى . والذى لا شك فيه أن الغربيين اعتمدوا هذا الكتاب فى تقويم البلدان ، ولا سيما بلاد الشرق ، إلى أن تقدم علم الجغرافيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وحسبنا أن نشير إلى ما كتبه البارون دى سلان . (فى عدد ابريل سنة ١٨٤١ من المجلة الإسيوية الفرنسية) ؛ فقد قال : « إن كتاب الإدريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها » .

ولا شك فى أن ما كتبه الإدريسى عن صقلية يشهد بالتسامح الدينى الذى كان سائدا فيها برعاية الحكام النورمانديين الذين كانوا يحثون رعاياهم المسلمين على التمسك بأهداب دينهم والذين يقال إنهم كانوا لا يأذنون للمسلم أن يرتد عن الإسلام . ولا غرو فى ذلك فقد كان هؤلاء الحكام شبه شرقيين فى مظاهر حضارتهم المختلفة .

---

(١) راجع كتاب « حديث السندباد القديم » للدكتور حسين فوزى ص ١٤٦

ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن سيرة الإدريسى . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن مرجع هذا أن المؤلفين العرب كانوا يتجاهلون وجوده لإسرافه فى مدح رجار ، ولإنصافه المسيحيين فى صقلية إلى أبعد حد ، فى وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء ، أو يعملون على طردهم من الأندلس . ولكن هذا التعليل لا يقوم على أساس متين ؛ لأن شكوانا فى شأن ضياع سيرة الإدريسى تصلح أيضاً لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين ، الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا فى مدحهم .





السمعانى

هو عبد الكريم بن أبى بكر السمعانى من علماء مدينة مرو . ولد سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ م) من بيت كريم انتهت إليه رئاسته . وقام برحلات طويلة فى طلب العلم والحديث ؛ حتى قيل إن عدد شيوخه زاد على أربعة آلاف . والمعروف أنه زار بلاد ما وراء النهر Transoxiane وجال فى أقاليم الشرق الإسلامى ، ولا سيما إيران والعراق والشام والحجاز ، ولعله طاف فى « غيرها من البلاد التى يطول ذكرها ويتعذر حصرها » ، على حد قول ابن خلكان فى ترجمته .

ويتجلى علم السمعانى ببلاد الإسلام فى مؤلفه « كتاب الأنساب » الذى جمع فيه بضعة آلاف من التراجم مرتبة على حروف المعجم ، ونسب كل واحد منها إلى بلد أو قبيلة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك ؛ فكان يضبط حروف النسبة ويشرحها ، وإذا كانت إلى بلد ذكر موقعه ثم

ترجم لصاحب الاسم. والحق أن مثل هذا المعجم المطول من الأعمال العلمية الجليلة ، التي تتطلب الأسفار الطويلة والاطلاع الواسع . وقد لخص « كتاب الأنساب » أو أجمله عدد من المؤلفين . واختصره السمعانى نفسه فى كتاب طبعته مصوراً لجنة تذكار جب Gibb Memorial سنة ١٩١٢ .





ابن جبير

كان كثير من الحجاج القادمين من الأندلس يزورون المغرب ومصر والشام فى طريقهم إلى الحجاز ، ثم ينتهزون هذه الفرصة للطواف فى بعض الأقاليم الإسلامية الأخرى . وأعظم أولئك الحجاج شأناً فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) هو ابن جبير ؛ فقد قام بثلاث رحلات إلى الشرق ودوَّن أخبار الرحلة الأولى فى شبه مذكرات يومية تعرف باسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » . ولعله كتبها حول سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) . وقد قام على نشرها المستشرق الإنجليزى رايت W. Wright سنة ١٨٥٢ ثم ظهرت منها طبعة جديدة سنة ١٩٠٧ راجعها المستشرق الهولندى دى خويه .

ولد ابن جبير فى مدينة بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . ودرس على أبيه وغيره من علماء العصر فى سبتة وغرناطة ، ثم دخل فى خدمة أبى سعيد

ابن عبد المؤمن صاحب غرناطة . ومما جاء فى ترجمة ابن جبير عن كتاب « نفح الطيب » للمقرى أن الأمير أبا سعيد استدعاه يوماً ليؤلف فيه كتاباً وهو فى مجلس شرابه وحدث أن دفع إليه كأساً من النبيذ ، فاعتذر ابن جبير بأنه ما شرب الخمر قط ، فقال الأمير : والله لتشربن منها سبعاً ؛ فلم يستطع إلا الإذعان . وكافأه الأمير بأن قدم إليه القدح سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير وصب ذلك فى حجره . وانصرف ابن جبير . وعقد العزم فى الليلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيراً عن ذنبه فى شرب النبيذ . وأنفق تلك الدنانير فى سبيل البر وباع عقاراً له تزود به .

*
* *

بدأ ابن جبير رحلته إلى الأراضى الحجازية فى شوال سنة ٥٧٨ هـ (فبراير سنة ١١٨٣ م) مع صديق اسمه أحمد بن حسان كان من رجال الطب والعلم والأدب . وعبر الصديقان البحر إلى مدينة سبتة Ceuta حيث وجدا سفينة من سفن مدينة جنوه ، تريد الإقلاع إلى الاسكندرية ، فركباها يوم الخميس ٢٩ من شوال (٢٤ فبراير) . وبدأ ابن جبير تقييد يومياته منذ اليوم التالى . ومما يشهد بأن العلاقات بين الأفراد المسيحيين والمسلمين كانت طيبة أن ابن جبير سره التوفيق لتلك السفينة وكتب أن الله « سهل عليه وعلى صديقه ركوبها » .

أقلعت السفينة من ثغر سبتة الواقع على شاطىء مراكش فى مواجهة جبل طارق . وسارت محاذية لشاطىء الأندلس حتى ثغر دانية جنوبى

بلنسية . ثم اتجهت شرقاً مارة بجزائر البليار . وكادت أنواء البحر وأمواجه أن تعبث بها ، لولا أن ساق الله إليها مركباً مسيحياً آخر ، كان قادماً من قرطاجنة الإسبانية وميمما شطر صقلية ، فاقتفت أثره . واستطاعت أخيراً أن تصل مع ذلك المركب إلى بر سردانية حيث جدد المسافرون الماء والحطب والزاد . وقيد ابن جبير أن مسافراً مسلماً ممن يعرفون « اللسان الرومى » هبط مع جماعة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة من المرسى الذى وصلت إليه السفينة فرأى نحو ثمانين من أسرى المسلمين رجالا ونساء يباعون فى السوق ، وكان الروم قد عادوا بهم من غزوة فى سواحل البحر ببلاد المسلمين .

أقلعت السفينة بعد ذلك إلى صقلية . ووصف ابن جبير ما مر بها من العواصف والأهوال إلى أن أرست على شاطئها عند موضع لم يحدده . ثم فارقته إلى ثغر الاسكندرية فوصلت إليه فى ٢٩ من ذى القعدة أى بعد شهر من بدء رحلتها من مراكش .

وطبيعى أن أول ما شاهده ابن جبير فى الاسكندرية إنما كان متصلا بما نسميه اليوم « إجراءات الجمرك » . والحق أنه وصفها فى دقة وطرافة ، تحملنا على روايتها على لسانه ، لنتبين أن كثيراً من الأنظمة التى تبدو لنا اليوم من تمخضات مدنيتنا ليس فى الحق إلا تطوراً طبيعياً لما عرفه القوم فى العصور الوسطى .

قال ابن جبير : « فمن أول ما شاهدنا فيها (أى فى الاسكندرية) يوم

نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه ؛ فاستحضر جميع من كانوا فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل منهم عما لديه من سلع أو ناض (نقد) ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زادلطريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا . واستنزل أحمد بن حسان منا ، ليُسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ؛ فطيف به مرقّباً على السلطان أولا . ثم على القاضى ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفى كل يستفهم ثم يقيد قوله فيخلى سبيله .

وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم و بحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان ، فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب . والديوان قد غصّ بالزحام فوقع التفتيش لجميع الأسباب ، ما دق منها وما جل . واختلط بعضها ببعض . وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها . ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام . ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم . . . وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين . ولو علم بذلك ، على ما يؤثر عنه من العدل و إيثار الرفق ، لأزال ذلك وكفى الله المؤمنين تلك

الخطة الشاقة ، واستؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة ، التى هى من نتائج عمال الدواوين » .

فقد آلم ابن جبير أن يساء إلى الحجاج المسلمين ، وأن يطلب إليهم أداء الزكاة عن جميع ما معهم ، بدون تفرقة بين الذى حال عليه الحول فاستحقت عليه الزكاة وما لم يحل عليه الحول فلا زكاة عليه ، كما آلمته القسوة فى تفتيشهم . والظاهر أن هذه الدقة فى « جمرك » الإسكندرية قديمة ، فقد ذكر الأستاذ نقولا زيادة فى كتابه « رواد الشرق العربى » ، الذى أخرجته مجلة المقتطف ، أن السائح المسيحى برنارد الحكيم روى عن نفسه (فى القرن التاسع الميلادى) أنه فتش فى الإسكندرية وحقق معه ، ودفع ستة دنانير ذهبية .

وقد لقى ابن جبير مثل هذا التفتيش بالإسكندرية فى رحلته الثانية إلى مصر ؛ فكتب قصيدة يمدح فيها السلطان صلاح الدين ، ويشير إلى فتحه بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وينصحه بإزالة هذه الأساليب التى تهتك فيها الحرمات وتنسى حقوق المسلمين ، ومن أبيات هذه القصيدة : —

يعنت حجاج بيت الإله	ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم	وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا	كأنهم فى يد الآسر

ويلزمهم حلفا باطــلا وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة فليس لها عنــه من ساتر
وليس على حرم المسلمين بتلك المشاهد من غائر
ألا ناصح مبلغ نصحــه إلى الملك الناصر الظافر
فما للمناكر من زاجر سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك إن لم تزل رسمها فمالك فى الناس من عاذر

أما الطواف بأحمد بن حسان — زميل ابن جبير — على طائفة من الموظفين لسؤاله عن أنباء المغرب ، فيذكرنا بما يحدث اليوم بين الدول المتحاربة من استجواب القادمين إليها من أبناء بلاد الأعداء أو ممن مروا بتلك البلاد ؛ ليمكن الإفادة مما قد يدلون به من أخبار . ومما يؤسف له أن ابن جبير لم يدون شيئاً عما اتبع فى الثغر مع المسافرين من غير المسلمين .

عرض ابن جبير بعد ذلك لوصف الإسكندرية فذكر آثارها وعمائرها ومنارها وأعجب بما فيها من مدارس للغرباء « يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعليمه » كما أشار إلى المستشفى الذى شيده السلطان لأولئك الغرباء ، وإلى الخيرات التى أوقفها للعناية بهم . ولاحظ كثرة المساجد إلى حد أن توجد منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد . وأتيح لابن جبير أن يشاهد فى الإسكندرية دخول الأسرى الصليبيين ، الذين وقعوا فى يد المسلمين فى الحملة الصليبية الفاشلة ، التى كان صاحب الكرك قد دبرها فى البحر

الأحمر للاستيلاء على المدن الإسلامية المقدسة . وقد أدخل الأسرى « راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق » .

ثم انتقل ابن جبير إلى القاهرة ومصر — وهذا الإسم الأخير هو الذى كانت تعرف به حينئذ مدينة الفسطاط وضواحيها المتصلة بالقاهرة — ونزل بفندق أبى الثناء فى زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص . وأقام فى عاصمة البلاد أياماً ؛ زار فيها مشهد الحسين والقرافة وضريح الإمام الشافعى ، والمدرسة الناصرية التى شيدها بإزائه السلطان صلاح الدين ، ولم تكن عمارتها قد تمت بعد . وأعجب ابن جبير بسعتها فكتب : « يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته . بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها » . وحرص على لقاء شيخها نجم الدين الخبوشانى ، لأنه كان قد سمع فى الأندلس بفضله و بركته . ثم شاهد مارستان القاهرة و بنيان القلعة والسور الذى كان صلاح الدين يريد أن يتخذه حول القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط فيجمع عواصم مصر الإسلامية كلها . وقد عثرت دار الآثار العربية فى حفائرها على أطلال هذا السور .

كما شاهد القناطر التى شيدها السلطان عند بدء الصحراء الغربية « بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة » . وكانت القنطرة والطريق المرصوف معاً جزءاً مما أعده السلطان للدفاع عن البلاد من جانب الغرب . ولاحظ ابن جبير أن جميع المسخرين فى العمائر

والمنشآت المختلفة كانوا من أسرى الروم . ووصف أهرام الجيزة «وأبا الأهوال»

وأشار فى حديثه عن القاهرة إلى فضل السلطان صلاح الدين فى محو المكوس ، التى كانت مفروضة على الحجاج فى عصر الدولة الفاطمية ، والتى كانت تجبى فى ثغر عيذاب على البحر الأحمر لحساب أمراء مكة . وكان الحجاج يضطهدون ويعذبون فى سبيل دفعها ؛ وأما الذين لا يدفعون الضريبة فى عيذاب ، وتصل أسماؤهم إلى جدة « غير معلم عليها علامة الأداء » فكانوا يلقون فيها أضعاف هذا التنكيل . فأبطل صلاح الدين هذه المكوس ، وعوض أمراء مكة بما يرسله إليهم سنوياً من الطعام والمال .

*
* *

ثم صعد ابن جبير فى النيل إلى قوص . ووصف بعض المعابد فى المدن التى توقفت عندها المركب ، كما شرح ما يلقاه الحجاج والمسافر من عسف العمال المكلفين جمع الزكاة ، فقد كانوا يعترضون المركب و يفتشون المسافرين و يفحصون الأمتعة بوساطة مسلة طويلة يتخللون بها الأكياس والحزم .

ودخل ابن جبير قوص فكتب أنها حافلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة . ثم سافر منها إلى عيذاب بطريق الصحراء الذى ذاعت شهرته فى عالم التجارة فى العصور الوسطى . ووصف ابن جبير هذا الطريق وأشار إلى ضخامة تجارته فى الفلفل وأنواع التوابل فقال « ورمنا فى هذا الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما

تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة . ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها ، أو غير ذلك من الأعذار . وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المارة عليها من أطوار الناس .

وصل ابن جبير إلى عيذاب ولاحظ أنها من أعظم الثغور شأناً « بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة » . كما لاحظ أنها فى صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب ؛ ولكن أهلها فى نعمة بما يكسبونه من خدمة الحجاج ولا سيما من تأجير الجلاب — والواحدة جلبة — وهى المراكب التى تنقل الحجاج بين عيذاب وجدة . وقد وصفها ابن جبير وصفاً فريداً ؛ لأنها كانت غريبة لا يستعمل فيها مسمار البتة . وكان أهل عيذاب لا يحفلون براحة الحجاج ؛ فكانوا « يشحنون الجلاب بهم ، حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج » لكى يستطيع صاحب الجلبة منهم أن يستوفى ثمنها فى رحلة واحدة . والواقع أن ابن جبير قدر أن الحلول بعيذاب من أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى الحج ، فقد كان ساخطاً على هوائها الذى « يذيب الأجسام » ومائها « الذى يشغل المعدة

عن اشتهاء الطعام » وسكانها « الذين لاخلاق لهم ولاجناح على لاعنهم » .
وأشار فى هذه المناسبة إلى ما يزعمه الناس من أن سليمان بن داود كان اتخذها
سجناً للعفارتة . ونصح ابن جبير بتجنبها وباتخاذ طريق الشام . والحق أن
هذا الطريق الأخير ومثله طريق العقبة ، كان طريقاً طبيعياً ولا سيما لحجاج
المغرب والأندلس . ولـكن وجود الصليبيين فى الشام حمل معظم الحجاج
على التحول إلى طريق عيذاب .

*
* *

على أن الجزء الأساسى فى رحلة ابن جبير إنما هو وصف مكة والمسجد
الحرام ومناسك الحج وزيارة المدينة ؛ فقد استغرق هذا كله أكثر من
ثلث الكتاب ، ووفق فيه الرحالة لتدوين أخبار وملاحظات ذات شأن
عظيم فى دراسة التاريخ والآثار الإسلامية . ولا عجب فقد أقام بمكة حول
ستة شهور . وغضب ابن جبير لما شاهده من سوء معاملة الحجاج ، وإمعان
أهل مكة فى استغلالهم ، لولا تدارك صلاح الدين بإرساله المال والطعام إلى
مكثر الحسنى أمير مكة ، فضلا عن منحه اقطاعات فى صعيد مصر واليمن .
غير إن غياب صلاح الدين فى حروبه مع الصليبيين فى الشام كان يشجع
مكثر الحسنى على التمادى فى نهب الحجاج ، حتى تمنى ابن جبير أن تطهر
تلك الأراضى المقدسة بسيوف مولاه ملك الموحدين .

وكان أمراء مكة يدينون بالطاعة للخليفة العباسى ولصلاح الدين ؛
ولكنهم كانوا ينعمون بقسط وافر من الاستقلال ، مادام الخليفة العباسى

ضعيفا ، وما دام صلاح الدين مشغولا بقتال الصليبيين . وذكر ابن جبير أن الخطيب فى الحرم الشريف كان يدعو يوم الجمعة للخليفة العباسى . ثم لأمير مكة ثم للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولأخيه وولى عهده أبى بكر . « وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه فى كل مكان . وحق ذلك عليهم ، لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم » . وليس هذا هو الموضع الوحيد الذى أشار فيه ابن جبير إلى صلاح الدين بأعظم الإعجاب والتقدير .

أكمل ابن جبير حجته ؛ ولكنه لم يعقد العزم على العودة إلى وطنه مباشرة . ولم يكن ليفكر فى الرجوع من طريق عيذاب ؛ فرافق ركب الحاج العراقى ، ومر بطريق نجد قاصدا الكوفة ؛ ودوّن أن هذه المدينة « كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها ، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، فهى لا تزال تضر بها » . وعبر الفرات عند مدينة الحلة على جسر جديد أمر الخليفة بتشييده لراحة الحجاج . وكان هذا الجسر معقودا على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط ، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد « كالأذرع المفتولة عظما وضخامة ، ترتبط إلى خشب مثبتة فى كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة » . واجتاز ابن جبير بظاهر مدينة الحلة جسرا آخر على نهر متشعب من الفرات يسمى « النيل » .

❊

❊ ❊

وأخيراً ألقى الرحالة عصا التسيار فى بغداد . ووصف أحياءها المختلفة ومساجدها وأسواقها وحماماتها ومدارسها ومستشفياتها ؛ ولكنه لم يجد العاصمة العباسية على حسب ما تخيل فكتب : « إن هذه المدينة العتيقة ، و إن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية ، . . . قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها . . . أما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء . يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء . قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده أن الوجود يصغر بالإضافة لبلده ؛ فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم . . . . . يظنون أن أسنى الفخار فى سحب الإزار . . . . . يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً ؛ فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه ، لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل فى سورة التطفيف . فالغريب منهم معدوم الإرفاق متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق ، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق . . . . . فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها . . . أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين ووعاظهم المذكرين . . . . . لكنهم معهم يضربون فى حديد بارد » .

والحق أن ابن جبير كان قاسياً على أهل بغداد قسوة تذكرنا بقسوة

الطبيب ابن رضوان (القرن ٦ هـ ، ١٢ م) على المصريين عامة ، حين أسرف فى وصفهم بالجبن والبخل وما إلى ذلك ، حتى لاحظ أن كلابهم أقل جرأة وبهائمهم أشد ضعفاً من الكلاب والبهائم فى سائر الأقاليم[١].

وعرض ابن جبير فى وصف بغداد لقصور الخليفة وأسرته . وذكر أن بنى العباس كانوا وقتئذ معتقلين اعتقالا جميلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة ، ولم يكن للخليفة وزير ؛ بل كان له موظف لشئونه الخاصة ، يعرف بنائب الوزارة ، وله فضلا عن ذلك قيم على الدولة كلها يعرف بالصاحب أستاذ الدار ويدعى له فى الخطبة إثر الدعاء للخليفة .

*
* *

وانتقل ابن جبير إلى الموصل ماراً بسر من رأى وتكريت وأعجب بما فى الموصل من عمائر حربية ودينية ومستشفيات . ثم واصل الرحلة بين مدن الشام المختلفة فوصف آثارها ، وتحدث عن عادات أهلها وعن عنايتهم بالغرباء . ودوّن « أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم » .

والحق أن ابن جبير نبه إلى ما كان من مودة وعلاقات تجارية بين أفراد المسلمين والمسيحيين، حتى فى العهد الذى كانت الحروب الصليبية ناشبة فيه

---

(١) راجع الفصل الذى كتبه الأستاذ ڤييت عن سكان مصر فى كتاب : L. Hautecœur et G. Wiet : Les Mosquées du Caire ج١ص٦٦ — ٧١

بين أمراء الفريقين ، فقد كتب فى رحلته : « ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف (القتال) بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا فى هذا الوقت الذى هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض فى طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا ، وهو سرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، يذكر أنه ينتهى إلى أربعمائة قرية ، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم . وهى من الأمنة على غاية . وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب . هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم ، وفى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلماً أو حرباً ، وشأن هذه البلاد فى ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه » .

ولاحظ ابن جبير أن الفلاحين المسلمين فى الأرض التابعة للمسيحيين كانوا فى رخاء، بينما كان إخوانهم الفلاحون المسلمون عند الملاّك من بنى دينهم لاينعمون بمثل ذاك الرفق والعدل. قال ابن جبير: « ورحلنا من تبنين سحر يوم الإثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منظمة، سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه . . . وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم فى غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً؛ ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهى القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يبصرون عليه إخوانهم من رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله ».

لاحظ ابن جبير أن الصليبيين كانوا يفرضون على المسلمين المغاربة ضريبة خاصة قدرها دينار على كل شخص. ودوّن أن السبب فى ذلك أن طائفة من المجاهدين المغاربة اشتركت مع مسلمى الشرق الأدنى فى فتح أحد الحصون الصليبية؛ وكان لهم الفضل الأكبر فى هذا الميدان. والظاهر أن الصليبيين ضايقهم قدوم المغاربة من بلادهم البعيدة للمساهمة فى قتالهم،

فجزوهم بهذه الضريبة « وقال الافرنج إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً ، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم » . ولكن الواقع أن اشتراك المغاربة فى الحروب الصليبية فى الشرق ليس غريباً فى شىء ، ولا سيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت فى حروب صليبية مع المسيحيين قبل أن تنشب الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى .

*
* *

ووصل ابن جبير إلى عكا فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ ١٨ من سبتمبر سنة ١١٨٤ ، ووصفها بأنها ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق . ولا عجب فقد كانت حينئذ أهم ثغور الصليبيين . وعلم هناك أن مركباً فى ثغر صور عازم على الإبحار إلى بجاية بتونس . فذهب إلى صور ولكنه استصغر المركب فقفل راجعاً إلى عكا بطريق البحر وركب فيها سفينة جنوية كبيرة من سفن الحجاج المسيحيين والمسلمين كان قصدها ثغر مسينة بجزيرة صقلية . ودوّن ابن جبير أنها كانت كالمدينة الجامعة ؛ فيها أكثر من ألفى مسافر ، ويباع فيها كل ما يحتاجه المسافر ، وأن المسلمين كانوا فى المركب بمعزل عن الافرنج . وأشار إلى أن عدداً من المسافرين من المسلمين ومن البلغريين (تعريب لكلمة peregrini بمعنى حجاج ، فى اللاتينية) هلكوا فى السفينة فقذف بهم فى البحر ، وورثهم قائد المركب لأن المتبع عندهم أنه يرث كل من يموت فى البحر . واستغرقت الرحلة إلى

مسينة حول شهرين ، وكان المقرر لها نحو أسبوعين . والحق أنها كانت رحلة غنية بالأحداث والأخطار ، تشهد بما كان يتعرض له المسافرون فى البحر حينئذ ، وبما كان يستلزمه قيادة السفن من مهارة ومران وصبر . وقد أتيح لابن جبير فى وصف عبور البحر الأبيض المتوسط قادماً وعائداً ، وفى وصف عبوره البحر الأحمر ، أن يستعمل كثيراً من مصطلحات الملاحة وبناء السفن فى العصور الوسطى ، فحفظ لنا بذلك عدداً وافراً منها ، يمكن الإفادة منه فى فهم بعض النصوص الأخرى المدوّنة فى ذلك العصر .

أرست السفينة أخيراً عند مدينة مسينة فى صقلية ، فوصفها ابن جبير ؛ ولكنه وصف ملؤه المفارقات المتناقضات فبينما يقول إنه « لا يقر فيها لمسلم قرار » وإنها « لا توجد لغريب أنساً » إذ به يضيف إلى ذلك « أن أسواقها نافقة حفيلة ، وأرزاقها واسعة بأرغاد العيش كفيلة ، لا تزال بها ليلك ونهارك فى أمان وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان » . ويلوح أن ابن جبير لم يكن قد اطمأن بعد إلى حال المسلمين فى صقلية ، فإنه زار بعد ذلك بالرمة عاصمة البلاد ، وزار غيرها من مدن الجزيرة ، ووصف عمرانها ، وثقة حكامها المسيحيين برعاياهم من المسلمين ؛ وقد كان عددهم وافراً فى هذا الإقليم ، الذى التقت فيه مختلف المدنيات الوثنية والمسيحية والإسلامية .

ولكنا لا نستطيع أن نركن إلى رحلة ابن جبير فى الوقوف على حال المسلمين بصقلية ، ومعرفة ما كانوا يتمتعون به من الحرية الدينية بعد أن زال سلطانهم عن هذه الجزيرة بقرن من الزمان . فآناً نراه يدوّن ما يشهد

بأن المسيحيين كانوا يحسنون معاملة المسلمين ، و يستخدمونهم فى الوظائف والمهن ، حتى فى أعظمها شأناً ببلاط الأمير ؛ وآناً نراه يروى حديث رجل مسلم لقيه فى مسينة ، اسمه عبد المسيح ، وقال له : « أنتم مدلون باظهار الإسلام فائزون بما قصدتم له ، رابحون إن شاء الله فى متجركم ، ونحن كاتمون إيماننا ، خائفون على أنفسنا ، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا » .

وعلى كل حال فإن الذى وصل إليه المؤرخون أن الدولة النورمانية فى صقلية كانت تشمل المسلمين بقسط وافر من رعايتها وكانت تعترف بفضلهم وسبق مدنيتهم فى كثير من نواحى الحياة . و إذا لم يكن ما كتبه ابن جبير فى هذا الصدد واضحا تماما ، فإن سائر وصفه لبلاد صقلية عظيم الفائدة من الناحيتين التاريخية والجغرافية ؛ لأنه كان دقيق الملاحظة فى وصف الظواهر الاجتماعية . من ذلك ما فطن له من أن الخلاف بين أفراد الأسرة الواحدة من المسلمين كان يؤدى أحيانا إلى دخول بعضهم فى المسيحية ، فراراً من رقابة أو ولاية أو علاقة شرعية أخرى .

ثم أقلع ابن جبير من صقلية على ظهر سفينة جنوية حملته إلى ثغر قرطاجنة فى الأندلس فوصل إليها فى الخامس عشر من المحرم سنة ٥٨١ ثم واصل السفر حتى وصل إلى غرناطة فى الثانى والعشرين من المحرم (٢٥ ابريل سنة ١١٨٥) بعد ان غاب عنها حول سنتين وثلاثة أشهر .

وقام ابن جبير برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م)،

استغرقت سنتين و بضعة أشهر . وقيل إن الذى جذبه إلى الشرق هذه المرة ما سمعه من استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) . ثم ترك ابن جبير المقام فى غرناطة وانتقل إلى بلاد المغرب حيث أقام عشرين سنة أو نيف ؛ رحل بعدها إلى الشرق مرة ثالثة سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وقيل إن ذلك كان بسبب وجده على زوجه عاتكة ، التى توفيت فى تلك السنة والتى نظم فيها ديوانه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » . واستقر ابن جبير فى الاسكندرية ، وتوفى بها فى السنة نفسها وقد جاوز الثانية والسبعين .





الهروى السائح

هو على بن أبى بكر – وقيل أبى طالب — بن على الهروى الأصل . ولد فى الموصل . وطاف فى أنحاء الشرق الإسلامى وفى الهند وفى القسطنطينية والمغرب وصقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط . وكان مغرما بالأسفار و بكتابة اسمه على الآثار التى يزورها ، حتى كتب عنه ابن خلكان « أنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه » وقد سار ذكره بذلك ، حتى عرف باسم الهروى السائح .

والمعروف أنه زار القسطنطينية فى زمن الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس، وأنه زار دمشق سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) قبل أن يستعيدها صلاح الدين من يد الصليبيين . وكان فى الإسكندرية سنة ٥٧٠ هـ . ثم كان فى قافلة نهبها الصليبيون سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ؛ ففقد فيها كتبه و بعض

المذكرات التي جمعها ، ولعله كان حانقاً لهذا السبب ؛ أو لعل تقواه وشدة اعتداده بنفسه حملاه على أن يرفض مقابلة الملك ريكاردوس قلب الأسد ، الذي سمع بفضله ، وحرص على أن يتحدث إليه .

واتصل الهروى فى خاتمة حياته بالملك الظاهر بن صلاح الدين ؛ فأقام تحت رعايته فى حلب إلى أن توفى سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) .

وقد وصل إلينا من مؤلفات الهروى كتاب « الإشارات إلى معرفة الزيارات » ولا يزال مخطوطاً لم يطبع إلى اليوم : ولكن الرحالة يشير فيه إلى كتب أخرى من تأليفه ، مثل كتاب « منازل الأرض ذات الطول والعرض » و « كتاب الآثار والعجايب والأصنام » .

أما كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ، فقوامه ذكر الآثار والعمائر الدينية التى زارها الهروى والتى يستطرد فى الحديث عنها إلى بعض البيانات التاريخية الطريفة . وفى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة منه بعنوان « رحلة أبى الحسن بن أبى بكر بن على الهروى الموصلى ، تمت كتابتها سنة ٦٠٢ هـ » أى قبل وفاة المؤلف . ومما يؤسف له أن هذه الرحلة غنية بالخرافات والأساطير ، وإن كنا نجد فى بعض أجزائها وصفاً وأحاديث تدل على دقة الملاحظة .

وقد نسج الهروى على منوال كثير من المؤلفين ، فقال فى مقدمة كتابه إن بعض الإخوان والخلان سألوه أن يذكر لهم ما زاره من الزيارات ، وما شاهده من العجائب والأبنية والعمارات ، وما رآه من الأصنام والآثار

والطلسمات « فى الربع المسكون والقطر المعمور » وأنه رفض أن يلبى هذا الطلب ، إلى أن اجتمع برسول الخليفة العباسى إلى صلاح الدين ، وأقنعه هذا الرسول بتأليف الكتاب الذى وصل إلينا .

ومن الطريف أن الهروى اعتذر عما فى الكتاب من خطأ فقال : « وإن جرى السهو فيما أذكره بطريق الغلط لا بطريق القصد ، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح فى ذلك و إصلاح الخطأ و إيضاح الحق ؛ فإن كتبى أخذها الانكتار ملك الفرنج ؛ ورغب فى وصولى إليه ، فلم يمكن ذلك ، ومنها ما غرق فى البحر ، وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة ؛ وقد نسيت أكثر ما رأيته ، وشذ عنى أكثر ما عاينته ، وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ، ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعباد ، إلا رجل جال الأرض بقدمه ، وأثبت ما قلته بقلبه وقلمه » .

ومما كتبه الهروى : « الأهرام من عجائب الدنيا ، وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع ، ورأيت بمصر أهراماً كثيرة منها خمسة كبار والباقى صغار . فأما الكبار فاثنان عند الجزيرة واثنان عند قرية يقال لها دهشور ، وهرم عند قرية يقال لها ميدوم ، وقد اختلفت أقاويل الناس فيها وفى بانيها وما يريد بها ، ومنهم من قال إنها قبور للملوك ، ومنهم من قال إنهم عملوها خوفاً من الطوفان ، وقيل إن المأمون فتح هرماً منها ، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجزيرة ؛

فوجدوا داخله بئراً مربعة ، فى تربيعها أبواب يفضى كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكفانهم ، وقيل إنهم وجدوا فى رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر ، وفيه صنم كالآدمى الرهنج ، وفى وسطه إنسان عليه درع من الذهب مرصع بالجوهر ، وعلى صدره سيف لا قيمة له وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوؤه كالنار» . وأضاف الهروى أنه دخل إلى هذا الهرم ورأى الحوض واضحاً ، وقد كتب أنه سيذكر فى كتاب العجائب والآثار والأصنام والطلسمات جميع ما سمعه من أخبار الأهرام والصنم أبى الهول وجميع البرابى (المعابد) التى ببلاد الصعيد .

ومما دوّنه عن الأقصر : « مدينة بها من الآثار والقصور والأصنام ، وصور الأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله فى بلاد الصعيد ولا فى غيرها ، وذرعت يد صنم فكان من المرفق إلى مفصل الكف سبعة أذرع » .

وقد كتب الهروى عن المقابر الأثرية فى صعيد مصر ، وعن الجثث المدفونة فيها ، وعن أكفانها المحفوظة على حالها الأولى . والحق أن الاكتشافات الأثرية الحديثة ، والمنسوجات الوافرة التى عثر عليها المنقبون عن الآثار فى تلك المقابر ، كل ذلك يؤيد ما كتبه الهروى كل التأييد .

وكتب عن أسوان : « آخر بلاد الصعيد و بلاد الإسلام وبها الجنادل حجارة نابتة فى وسط البحر . فإذا كان وقت زيادة النيل ، يوضع عليها سرج . فإذا زاد البحر وأخذها ، أرسلوا البشارة إلى مصر . فينزلوا فى مركب صغير و يسبقوا الماء و يبشروهم بالزيادة . وجميع معادن حجارة المانع

والعمد التى بالديار المصرية ومسال فرعون وعمد السوارى بالإسكندرية من جبال هذه المدينة . ورأيت آثار القطاعات فى الجبل والحجارة المانع والعمد مقطوعة » .

وقد أعجب الهروى بما رأى فى مصر من زهور ونبات ، فكتب فى رحلته « وبالجملة فإن ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا ، ورأيت بها فى أوان واحد مجتمعاً ورداً ثلاثة ألوان وياسمين لونين ونيلوفر لونين وآسا ونسرينا وريحاناً وخبزياً وبنفسجاً ومنتوراً ونبقاً وأترنجاً وليموناً مركباً وطلعاً ورطباً وموزاً وجميزاً وحصرماً وعنباً وطيناً (تيناً) أخضر ولوزاً وقثاء وفقوساً وبطيخاً وباذنجاناً وباقلاً أخضر ويقطيناً وحمصاً أخضر وخساً وجوزاً أخضر ورماناً وهليوناً وقصب سكر » .





أسامة بن منقذ

هو أسامة بن مرشد من بنى منقذ ، أمراء إقليم شيزر شمالى سورية . ولد سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥) . وكانت إمارة هذا الإقليم قد آلت إلى أبيه مرشد ولكنه تنازل عنها لأخيه . وعنى الأمير بأسامة ، ابن أخيه ؛ ولكنه رزق ولداً ذكراً فاتجه إليه بعطفه ، مهملا أسامة . وغادر هذا قلعة شيزر . وحدث أن دمرت هذه القلعة فى زلزال سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ومات من كان فيها من آل منقذ . أما أسامة فقد كان فى بعض أسفاره . ومات سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) بعد أن جاوز التسعين .

وقد قام أسامة بعدة رحلات فى مصر والشام و بلاد الجزيرة و بلاد العرب . ومع أنها رحلات ضيقة الأفق محدودة الدائرة ، فإن لها شأناً عظيما فى وصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وفى بيان العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق الأدنى فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر

الميلادى) . ذلك أن أسامة كان أميراً فارساً وأديباً شاعراً ، وأتيح له أن يتصل بأمراء المسلمين فى عصره ، وأن يلقى بعض الأمراء الصليبيين و يصادق الفرسان من رجالهم . وأخبار رحلته فى كتابه « الاعتبار » تمتاز بالدقة فى الملاحظة ، والصدق فى الرواية ، والإبداع فى الفن القصصى ، مع التوفيق فى الفكاهة و إيراد النكتة .

وقد وقف الدكتور فيليب حِتّى Philip Hitti اللبنانى أستاذ الآداب السامية فى جامعة برنستون بالولايات المتحدة على نشر كتاب الاعتبار سنة ١٩٣٠ . وقدمه بترجمة طريفة لأسامة ، قال فيها : « فحياة أسامة إذن تمثل لنا الفروسية الإسلامية العربية على ما ازدهرت فى ربوع الشام فى أواسط القرون الوسطى ، والتى بلغت حدها الكامل فى صلاح الدين ، وسيرته تتضمن موجز تاريخ البلاد فى القرن الثانى عشر — قرن التجريدات الصليبية الثلاث الأولى ، ومذكراته الموسومة بكتاب « الاعتبار » مرآة تتجلى فيها المدنية الشامية فى أجلى مظاهرها — وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل مع المدنية الإفرنجية التى قامت إلى جانبها . ولو أن أسامة عاش اليوم ، لكان عضوا عاملا فى المجمع العلمى العربى ، ولكان بيته صالوناً للأدب بدمشق ، ولراسل « الهلال » و « المقطم » ولأكثر من العيش فى الهواء الطلق ، يدرس طبائع الحيوان و يرقب نمو النبات ، ولنالت جياده العربية جوائز السبق فى بيروت ، ولكان بلا تردد فى أثناء الحرب العظمى دَيْوَن فرقة من المطوعة يتولى قيادتها بنفسه » .

وكتاب « الاعتبار » غنى بأخبار القتال بين المسلمين والصليبيين ، وبما شاهده أسامة فى دمشق ومصر ، وبما اشترك فيه من المطارد والمصايد ومكافحة الأسود . ومن أمتع فصوله ما كتبه أسامة عن الصليبيين ؛ فقد كان يطوف فى أنحاء اماراتهم ، ويقاتلهم مع سائر المسلمين مع صداقته لبعضهم ولا سيما الفرسان الداوية Templars — وكان هولاء الفرسان يخلون له فى المسجد الأقصى مكانا صغيراً يصلى فيه حين يزور بيت المقدس. وكان أسامة يعجب بشجاعة الإفرنج ؛ ولكنه لايؤمن بكمال عقولهم. ومما كتبه عن الإفرنج : « ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها . والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى! » . وساق أسامة ثلاث قصص فى هذا الصدد . منها قصة إفرنجى « جاء يوماً ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش » فقال له : « أى شىء أدخلك إلى عند امرأتى ؟ » قال « كنت تعبان ، دخلت أستريح » . قال « فكيف دخلت إلى فراشى ؟ قال « وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه » قال « والمرأة نائمة معك ؟ » قال « الفراش لها . كنت أقدر أمنعها من فراشها !؟ قال الزوج « وحق دينى ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » — فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ! »

وكان أسامة يعجب بمهارة بعض أطباء الصليبيين ، ولكنه كان يتهكم

من جهل البعض الآخر ومن سذاجة الناس فى الإيمان بهم . وروى فى هذا الصدد قصة طريفة عن حاكم بلدة صليبية شمالى لبنان . كان هذا الحاكم صديقاً لعم أسامة فكتب إليه يطلب منه إيفاد طبيب يداوى بعض المرضى من أهل بلدته . فأرسل اليه عم أسامة طبيباً عربياً نصرانياً . ولم يطل غياب هذا الطبيب؛ فلما رجع قال له أهل أسامة متهكمين : ما أسرع ما داويت المرضى ! فأجاب « أحضروا عندى فارساً قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف [١] . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجى فقال « هذا ما يعرف شيء يداويهم !» وقال للفارس « أيهما أحب اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ » قال «أعيش برجل واحدة» قال «أحضروا لى فارساً قوياً وفأساً قاطعاً » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب فقال للفارس « أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها » فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال « هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها » فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف . فقال « الشيطان قد دخل فى رأسها » فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها . فقلت لهم « بقى لكم إلىّ حاجة ؟ ! » قالوا «لا» فجئت وقد تعلمت من طبعهم ما لم أكن أعرفه [٢] ! » .

---

(١) نوع من الهبوط والتعب العصبي

(٢) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٣٢ – ١٣٣

وروى أسامة فى كتاب الإعتبار (ص ١٣٤ — ١٣٥) قصة استنبط منها أن الصليبيين ترق أخلاقهم وتحسن طباعهم باستيطان الشرق ومعاشرة المسلمين . وقال فى هذا الصدد : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا [١] وعاشروا المسلمين » .

بل أشار أسامة فى كتابه إلى أن بعض الصليبيين تأقلموا فى الشام ، وعاشروا المسلمين وتطبعوا بطباعهم ، وكانت بينهم وبين المسلمين علاقات طيبة . قال أسامة « فمن ذلك أنى نفذت صاحبا إلى أنطاكية فى شغل . وكان بها الرئيس تادرس بن الصفتى (Theodorus Sophianos) وبينى وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم فى أنطاكية . فقال لصاحبى يوماً « قد دعانى صديق لى من الإفرنج . تجىء معى حتى ترى زيهم ؟ » قال « فمضيت معه ، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق ، الذين خرجوا فى أول خروج الإفرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة . ورآنى متوقفاً عن الأكل ؟ فقال : « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل طعام الإفرنج ، ولى طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل دارى لحم الخنزير ، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا » .

*
* *

وقد وصف أسامة فى « كتاب الاعتبار » ما شاهده فى مصر من الأحداث فيما بين سنتى ٥٣٩ و ٥٤٩ هـ (١١٤٤ — ١١٥٤ م) فتحدث

(١) لعله يقصد « تأقلموا » وأصبحوا من أبناء البلد

عن وصوله إليها فى عصر الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله وعما وقع فيها من الفتن بسبب ثورات الجند ، والنزاع القائم بين الخلفاء والوزراء . ولتفاصيل هذه الأخبار شأن تاريخى كبير لأن أسامة ساهم فى بعض تلك الأحداث وقام بمهمات سياسية لطائفة من الأمراء . ومن طريف ملاحظاته عن إقليم الطور أنه كان ولاية مصرية بعيدة وأن الخليفة الحافظ لدين الله كان إذا أراد إبعاد بعض الأمراء ولّاه الطور .

*
* *

أما الباب الذى عقده أسامة فى ذلك الكتاب للكلام على الصيد والطرد فيشهد بأن هذا اللون من الرياضة كان جِدّ شائع ومستحسن فى الشرق الإسلامى حينذاك . وهو جليل الشأن لأن أسامة كان من أسرة أصابت فى الصيد مهارة ودربة ؛ وقد أتيح لأسامة نفسه أن يصحب فى الصيد الأمراء المسلمين فى سورية والجزيرة ومصر . فدوّن فى كتابه شيئاً كثيراً فى شأن الصيد بالبزاة يرمونها على الطيور و يدقون الطبول فتتصيد منها ما تصيد . وكتب فى صيد الحيوان ولا سيما الذئب والضبع والأرنب والغزال وحمار الوحش والثعلب والخنزير . ووصف أسامة أساليب الصيد عند المسلمين وصفاً دقيقاً . وذكر بعض النوادر التى تدل على عنايتهم به وعلى أن بعض المولعين بالصيد كانوا يرسلون إلى مختلف الآفاق فى طلب البزاة وغيرها من طيور القنص . وكان التعاون صادقاً بين المسيحيين والمسلمين فى هذا الميدان ؛ فكان الروم فى القسطنطينية والمسيحيون من الأرمن

يرسلون البزاة والكلاب إلى أصدقائهم من هواة الصيد فى الشرق الإسلامى .

*
* *

وكان أسامة يحترم المرأة ويعنى بأحوالها فألف كتاباً فى « أخبار النساء » وروى فى « كتاب الاعتبار » قصصاً كثيرة تشهد بما قام به بعض النساء من أعمال البطولة . ولعل هذا جانب من الفروسية ونزعة الأرستقراطية عنده . والحق أن هذه النزعة الأرستقراطية كانت لا تفارقه حتى فى حضرة الملوك والأمراء . فقد روى فى « كتاب الاعتبار » أنه شهد يوماً الصيد مع الملك العادل نور الدين وسأله هذا أن يصلح الباز فرفض وأظهر نور الدين عجبه من أن أسامة يقضى عمره بالصيد ولا يحسن إصلاح الباز ، فأجاب أسامة ، : « يا مولاى ، ما كنا نصلحها نحن ، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا » .

*
* *

ومما حدث لأسامة فى بعض رحلاته أن وقع هو ورفاقه أسرى فى يد الصليبيين وفقدوا ما كانوا يحملونه من المال والمتاع ؛ ولكن أسامة لم يأسف على ذلك كله أسفه على ضياع كتبه التى نهبوها ، وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ؛ وقال فى ذلك إن ذهابها كان حزازة فى قلبه ما عاش [١]

ومن طريف ما يستنبط من إحدى القصص التى رواها أسامة فى « كتاب الاعتبار » (ص ١١٥) أن استئجار الندابات للندب فى المآتم كان معروفا فى القرن الثانى عشر الميلادى كما هو معروف اليوم .

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٣٤ — ٣٥

وكان أسامة ، مثل الهروى السائح ، مغرماً بكتابة اسمه أو تقييد بعض خواطره فى الأمكنة التى ينزل بها ، على نحو ما يفعل بعض السياح فى العهد الحاضر . من ذلك الأبيات الآتية ، وقد كتبها على حائط مسجد فى حلب ، وكان قد زار المسجد قبلا فى طريقه إلى الحج :

لك الحمد يا مولاى كم لك منة ... علىّ وفضل لا يحيط بها شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا ... من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس فى عامى الذى ... مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضاً وأسقطت ثقل ما ... تحملت من وزر المسيئة عن ظهرى

ومنه ما كتبه على حائط دار سكنها بالموصل ، حيث لم تطب له الإقامة . قال :

دار سكنت بها كرهاً وما سكنت ... روحى إلى شجن فيها ولا سكن
والقبر أستر لى منها وأجمل بى ... إن صدنى الدهر عن عودى إلى وطنى





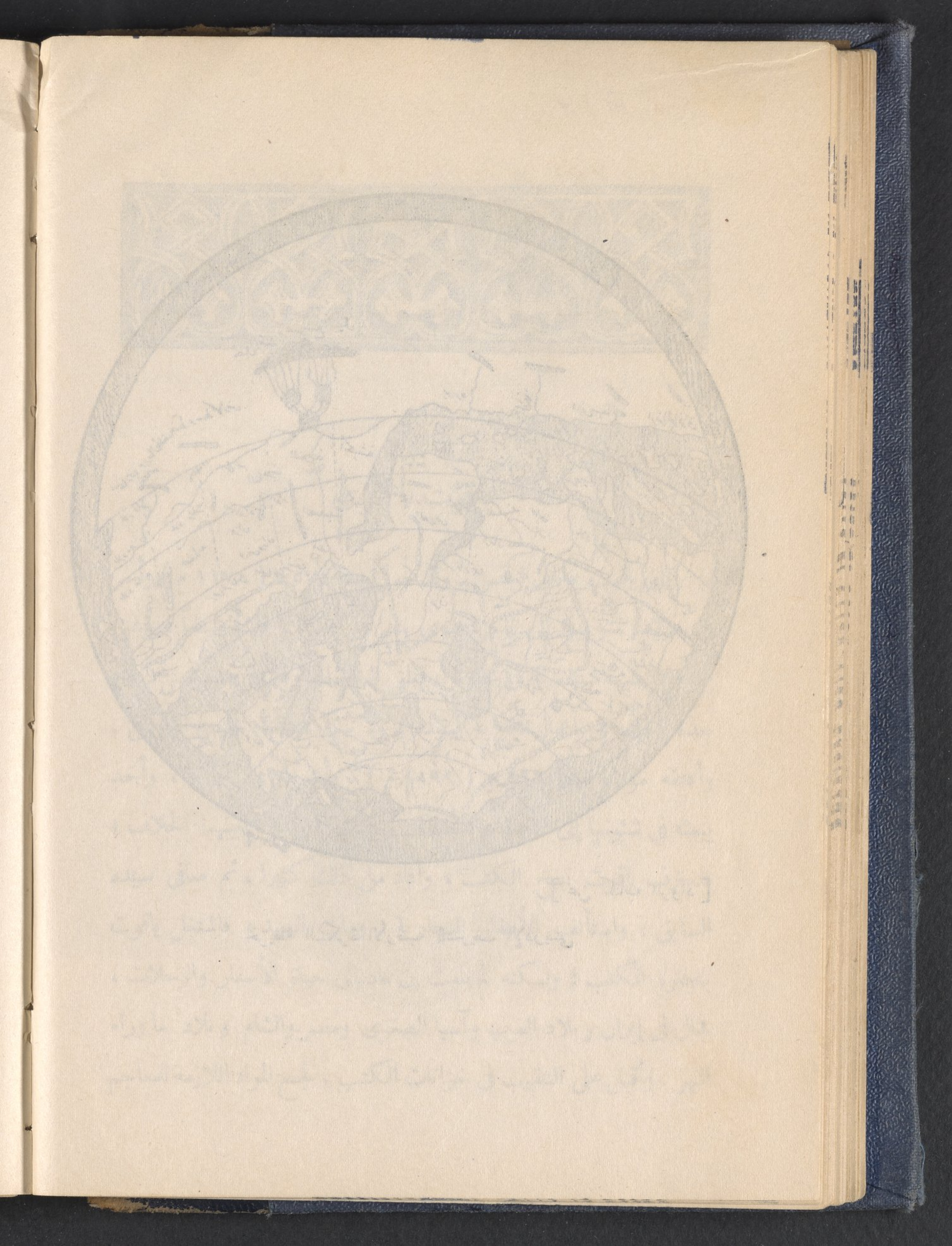
ياقوت الحموى

كان ياقوت يونانى الجنس . ولد حول سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) وأسر فى حداثته ، و بيع إلى تاجر حموى مقيم فى بغداد ، فنشأ مسلماً ، وعنى التاجر بتعليمه لينتفع به فى تجارته ، فتلقى العلوم المعروفة فى عصره . ثم قام بعدة أسفار فى أعمال تجارية لسيده ، ولا سيما بمنطقة الخليج الفارسى . وأعتقه مولاه سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) . وأشركه فى تجارته ، وأخذ يبعثه فى شئونها إلى الأصقاع المختلفة . وحدث أن دب بينهما الخلاف ، فاحترف ياقوت نسخ الكتب ، وأفاد من ذلك كثيرا ، ثم صافى سيده السابق ، واستأنف الأسفار التجارية . ومات السيد ، فاشتغل ياقوت بتجارة الكتب ؛ ولكنه لم يلبث إن عاد إلى حياة الأسفار والرحلات ، فجال فى إيران و بلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام و بلاد ما وراء النهر . وأقبل على التنقيب فى خزانات الكتب ، فجمع المواد اللازمة للمعاجم



[عن كتاب الرواد]

خريطة الـكرة الأرضية للشريف الإدريسى



التى عقد العزم على تأليفها فى أسماء البلاد وتراجم الأدباء .

ويلوح أنه أفاد من خزائن مدينة مرو إفادة كبيرة ؛ فقد أشار إلى ذلك فى كلامه على هذه المدينة فى « معجم البلدان » ؛ فذكر أنه أقام بها ثلاثة أعوام وأنه تركها وفيها عشر خزانات كبيرة ، لم ير فى أى مدينة أخرى مثلها . وكان العمل فيها واستعارة كتبها الموقوفة أمراً سهلا ، حتى أن عدد ما كان عند ياقوت من هذه الكتب فى الآن الواحد كان يقرب من مائتى مجلد . والظاهر أنه كان يدفع رهناً للنادر منها . ولكن أكثرها كان بغير رهن . وقد ختم ياقوت حديثه عن هذه الخزانات بقوله « فكنت أرتع فيها ، وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد ، وأنهانى عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته ، فهو من تلك الخزائن » .

*

* *

والمعروف أن ياقوت لم يدون أخبار رحلاته . ولا ريب فى أن ما شاهده فى أسفاره وما جمعه من الخزائن التى نقب فيها ، كان خير عدة له فى تأليف كتابه « معجم البلدان » الذى امتاز بترتيبه على حروف الهجاء ، وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب ، حتى أن أحد المستشرقين قال فيه إنه من المؤلفات التى يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر[١] . وقد فرغ ياقوت من تأليف هذا المعجم فى سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) .

ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفاده ياقوت من

---

(١) Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam ج ٢ ص ١٩

رحلاته تحديداً دقيقاً . فإنه نقل فى معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين ، ولم يعين الأقاليم التى زارها بنفسه وكتب عنها مشاهداته الخاصة ؛ مع أنه كان من أكثر العلماء طوافاً فى عصره ، ومن أشدهم عناية بالتاريخ الطبيعى ومظاهر الثقافة الشاملة ، ومن أبعدهم عن الأخذ بالخرافات والأساطير . وقد عنى أحد المستشرقين (Heer) فى نهاية القرن الماضى بدراسة معجم البلدان وأخرج بحثاً فى المراجع التاريخية والجغرافية التى اعتمدها ياقوت لتصنيف هذا المعجم . ولكن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يبين نصيبه الخاص وآثار أسفاره وتجاربه فى هذه الموسوعة الجغرافية الجليلة الشأن .

*

* *

ومهما يكن من شىء فقد امتاز ياقوت عن كثير من مؤلفى العرب بملكة النقد التى كانت تتجلى فى روايته بعض الأساطير الذائعة فى عصره وفى حكمه على تلك الأساطير والتعليل لها . من ذلك ما لاحظه الدكتور حسين فوزى فى كتابه « حديث السندباد القديم » (ص ١٢٣) . فقد كتب ياقوت فى مادة « جاسك » من « معجم البلدان » :

« جاسك بفتح السين المهملة وآخره كاف . جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس — هى المعروفة بكيش — وعمان قبالة مدينة هرمز . بينها و بين قيس ثلاثة أيام وفيها مساكن وعمارات يسكنها جند ملك جزيرة قيس . وهم رجال أجلاد أكفاء لهم صبر وخبرة بالحرب فى البحر وعلاج للسفن والمراكب ليس

لغيرهم . وسمعت غير واحد من جزيرة قيس يقول أهدى إلى بعض الملوك جوارى من الهند فى مراكب فرفأت تلك المراكب إلى هذه الجزيرة فخرجت الجوارى يتفسحن فاختطفهن الجن وافترشهن فولدن هؤلاء الذين بها » .

وطبيعى أن يروى ياقوت هذا الحديث المتداول بين أهل زمانه؛ ولكنه يحرص على أن يشعرنا بأنه أسطورة وعلى أن ينسبه إلى قائليه فينص على أنه سمعه من « غير واحد من جزيرة قيس » كما يحرص بعد هذا كله على محاولة تفسيره فيضيف :

« يقولون هذا لما يروى فيهم من الجلد الذى يعجز عنه غيرهم ، ولقد حدثت أن الرجل منهم يسبح فى البحر أياماً وأنه يجالد بالسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض » .





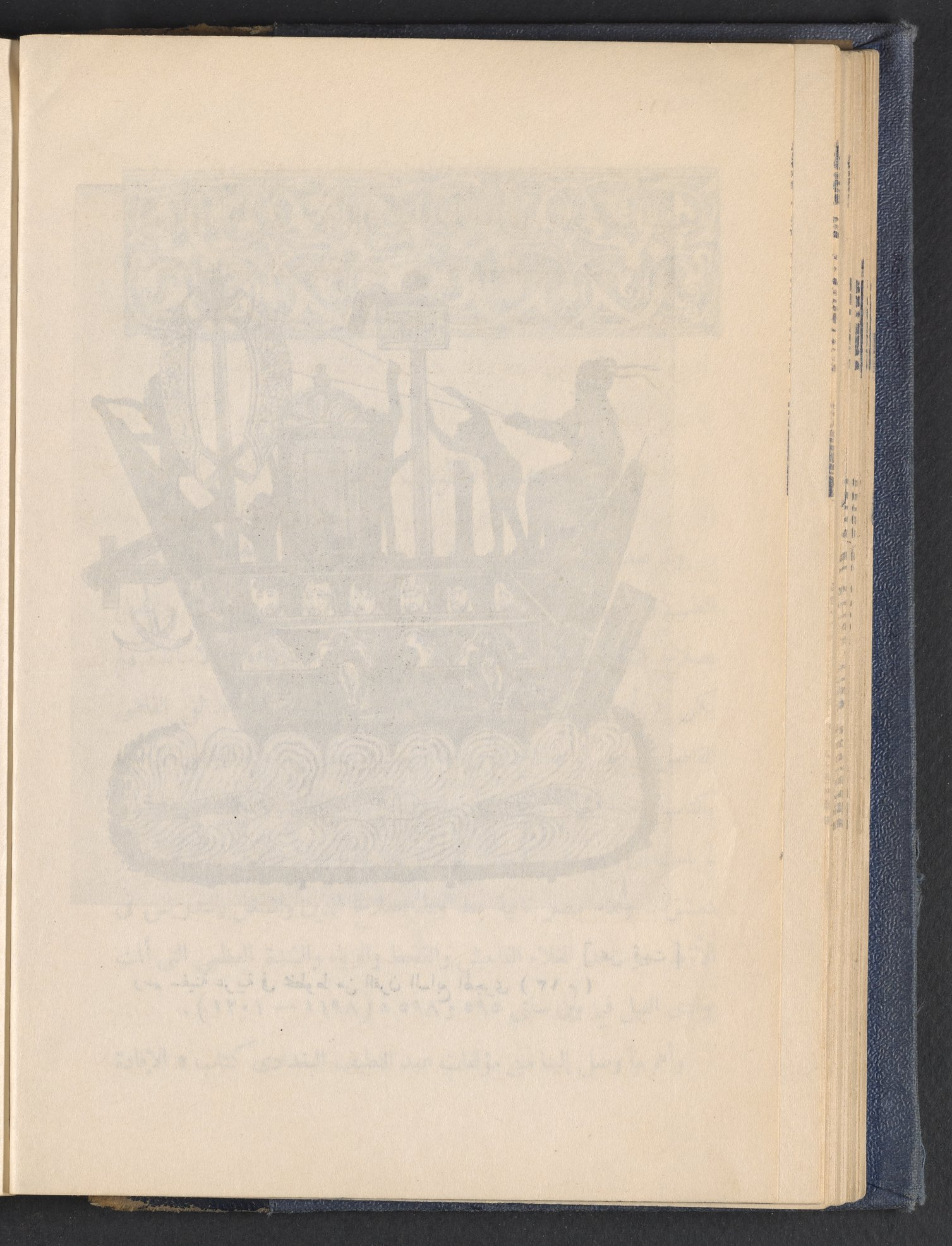
عبد اللطيف البغدادى

ولد عبد اللطيف بن يوسف فى بغداد سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ودرس الطب والفلسفة وعلوم اللغة . وتنقل بين مصر والشام والعراق . واتصل بصلاح الدين وغيره من الأمراء الأيوبيين . واجتمع بأعلام الأساتذة ولم يكن « يأخذ بقلبه ويملأ عينه » إلا النفر القليل منهم . وقد لقى القاضى الفاضل فى معسكر صلاح الدين بظاهر مدينة عكاء . وزوده القاضى الفاضل بكتاب توصية إلى وكيله فى مصر ، وهو ابن سناء الملك . ولكن عبد اللطيف لم يلبث أن غادر مصر ورحل إلى القدس للقاء صلاح الدين ، ثم يمم شطر دمشق . وقدم مصر ثانية بعد وفاة صلاح الدين واشتغل بالتدريس فى الأزهر ، وشاهد الغلاء الفاحش والقحط والوباء والشدة العظمى التى ألمت بوادى النيل فيما بين سنتى ٥٩٥ و ٥٩٨ هـ (١١٩٨ — ١٢٠١) .

وأهم ما وصل إلينا من مؤلفات عبد اللطيف البغدادى كتاب « الإفادة



[عن ڤييت]
رسم سفينة عربية فى مخطوط من القرن السابع الهجرى (١٣ م)



والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . وهو وصف رحلته إلى وادى النيل فى نهاية القرن السادس الهجرى . وقد ذاعت شهرة هذه الرحلة ، وترجمت إلى بضع لغات أوربية . والحق أنها تمتاز — على اختصارها — بدقة الوصف ، وذكر مختلف الشئون العمرانية والاجتماعية ، فضلا عن الاتجاه العلمى المنتظر من طبيب مثل البغدادى ، والذى يتجلى فى كلامه على خواص مصر العامة ، وعلى ما تختص به من النبات والحيوان ، وعلى ما فيها من الآثار القديمة مثل الأهرام وأبى الهول والمسلات ، والمعابد فى مصر العليا ، ومنارة الإسكندرية وعمود السوارى .

*
* *

ومن الطريف أن عبد اللطيف سجل فى رحلته رأياً فى قيمة الآثار قد يظن بعضهم أنه غريب على المسلمين فى العصور الوسطى . أجل ، فقد كتب هذا الرحالة :

« وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها ، وإن كانوا أعداءً لأربابها . وكانوا يفعلون ذلك لمصالح : منها لتبقى تاريخاً يُتنبه به على الأحقاب . . . ، ومنها أنها تدل على شىء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك . وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الإطلاع عليه » .

ولكنه أضاف إلى ذلك أن القوم فى عصره كانوا يخربون الآثار ويكسرون الأصنام ، ويدخلون إلى المقابر بحثاً عن الكنوز وسعياً وراء

الذهب المدفون مع الموتى . والحق أن ما كتبه البغدادى عن المقابر الأثرية وما يوجد فيها لا يختلف كثيراً عما وصلت إليه الحفائر العلمية فى العصر الحاضر ، أى بعد وفاة البغدادى بسبعمائة سنة ونيف ، بل إن الفصل الطويل الذى عرض فيه لآثار مصر فيه من دقة الوصف وشدة الإعجاب ما يبدو كأنه بقلم عالم من علماء الآثار المحدثين .

***

أما ما ذكره البغدادى عن حوادث مصر سنة ٥٩٥ وسنة ٥٩٨ ﻫ فوصف تقشعر لهوله الأبدان ، إذ اشتد القحط حتى أكل الفقراء لحم الميتة والكلاب : بل « تعدوا إلى أكل صغار بنى آدم » . ولم يفت الرحالة أن يلاحظ أن فريقاً من الناس استغل هذه الشدة العظمى على حساب الطبقات الفقيرة فى الشعب ، فأثبت فى أخبار رحلته أن « مما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا فى دنياهم هذه السنة . فمنهم من أثرى بسبب متجره فى القمح . ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث . ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف » .

وروى عبد اللطيف قصصاً مروعة عن الجوع والوباء وتصيد الناس وأثر هذا كله فى الانصراف إلى الضلالة والشهوات . وكأنه شعر بما يحمله بعضها من طابع المبالغة فقال : « ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر . وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه ؛ وإنما هو شىء صادفناه اتفاقاً ، بل كثيراً ما كنت أفر

من رؤيته لبشاعة منظره » . والمعروف أن مصر قد ابتليت بمثل هذا القحط عدة مرات فى تاريخها الطويل . وحسبنا أن المقريزى ، شيخ المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى ، ألف كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، بحث فيه المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، فتقصى أسبابها ، وأشار إلى الأساليب الممكنة لعلاجها .

والحق أن البغدادى كان دقيق الملاحظة فى كل ما دونه فى رحلته عن أرض مصر ومناخها ونباتها وحيوانها ، ومن ذلك قوله : « إن أرض مصر رملية لا تصلح للزراعة ؛ لكنه يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيره يسمى الإبليز ؛ يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مده ؛ فيستقر الطين ، وينضب الماء ، فيحرث ويزرع . وكل سنة يأتيها طين جديد ، ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شيء منها ، كما يفعل فى العراق والشام » .

ولاحظ عبد اللطيف أن مصر لم يكن بها فراريج عن حضان الدجاج إلا نادراً ؛ فقد كان فى البلاد كثير من معامل الفروج ، وكان القوم يتقنون صناعة حضانة الفراريج ، و يتخذونها صناعة ومعيشة يتجر فيها و يكتسب منها ، وقد أسهب الرحالة فى وصف طريقة المصريين فى بناء تلك المعامل واستخدام زبل البقر حتى لا يبقى فيها منفس للبخار .

ورأى البغدادى أن كثيراً من الناس يدخلون الهرم الأكبر ؛ وذكر

أن الطريق المسلوك فى هذا الهرم زلاقة تفضى إلى قلعة فيها ناووس من حجر ؛ ولاحظ أن مدخل الهرم ليس الباب المتخذ له فى أصل البناء ، وإنما منقوب نقباً صودف اتفاقاً ، وأعجب ببناء الأهرام إعجاباً عظيما فقال : « وقد سلك فى بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان ؛ ولذلك صبرت على ممر الزمان ، بل على ممرها صبر الزمان ، فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هى غاية إمكانها ، حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم ، وذلك أن وضعها على مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى إلى نقطة ، ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله فى وسطه ، وهو يتساند على نفسه ، ويتواقع على ذاته ، ويتحامل بعضه على بعض ؛ فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها ، ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع ؛ فإن الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية ، وليست كذلك عند ما تلقى السطح » .

ولم يكن البغدادى سائحاً عابراً ؛ بل كان يبحث ويتفهم . فنراه ، مثلا ، قد سمع أن فى القرية المجاورة للأهرام قوماً اعتادوا ارتقاء الهرم بدون عناء ، فاستدعى أحدهم وأعطاه شيئاً من النقود وطلب إليه أن يصعد إلى

قمته وأن يقيس أبعاده عندها ، ولـكنه لم يطمئن بعد ذلك إلى قياسه ، فدوّن رأيه فى خطأ هذا القياس ، وعلّق عليه بقوله : « وإن ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسى » .

وأشار البغدادى إلى المغارات الموجودة على ضفة النيل الشرقية جنوبى القاهرة وقال إنها : «مقابر كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث ، وتسمى المدينة ، حتى لعل الفارس يدخلها برمحه و يتخللها يوماً أجمع ، ولا ينهيها ، لكثرتها وسعتها و بعدها ، و يظهر من حالهـا أنها مقاطع حجارة الأهرام » .

وشاهد عبد اللطيف أبا الهول وأعجب بتناسب وجهه و باستطاعة الفنان أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها .

وصفوة القول أن البغدادى أطنب فى وصفه آثار مصر وأعمل الفكر فى بيان عظمتها ، وحسبنا أنه ختم ما كتبه عنها بعبارة أودعها كل شعوره فى هذا الصدد . قال : « و إذا رأى اللبيب هذه الآثار ، عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة ، أو أنه كان لهم عصاً إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه فى ذلك من علم الهندسة ، واجتماع الهمة ، وتوفر العزيمة ، ومصابرة العمل ، والتمـكن من الآلات ، والتفرغ للأعمال ، والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان ، وخاصة الإنسان ، ومقاديرها ، ونسب

بعضها من بعض ، وكيفية تركيبها ، و بصفاتها ، ومقادير وضع بعضها من بعض » .

وقد أطنب عبد اللطيف فى وصف حمامات مصر وقال إنه لم يشاهد « أتقن منها وصفاً ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً ومخبراً . أما أولا فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راو يتين إلى أر بع روايا وأ كثر من ذلك، يصب فيه ميزابان ثجاجان حار و بارد ، وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطا فيـه جرى منه إلى الحوض الكبير ، وهذا الحوض نحو ر بعه فوق الأرض وسائره فى عمقها ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفى المسلح أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم . وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفى وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة وجميع ذلك مزوق السقوف مفوف الجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الآذاج ، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه ؛ لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ داراً لجلوسه وتناهى فى ذلك لم تكن أحسن منه » .

والواقع أن عبد اللطيف البغدادى أعجب بكل ما شاهد فى القاهرة من

غرائب الأبنية ووسائل الراحة التى قرنها أحد العلماء المحدثين بما نعرفه فى الفنادق الحديثة من أرقى المخترعات وأساليب الترف[١] .



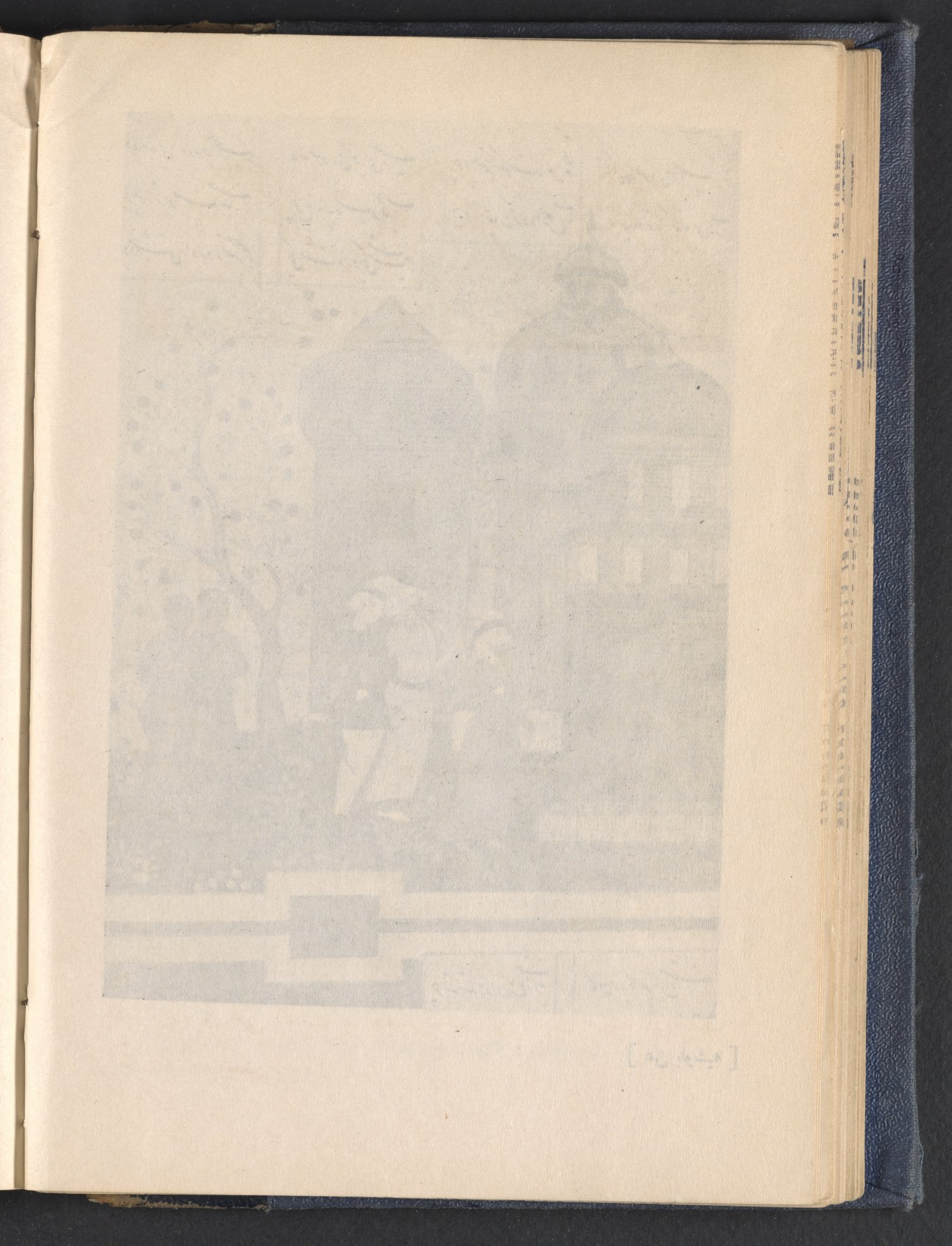
(١) أنظر Th. de la Roncière : La découverte de l'Afrique au Moyen Age ج ٢ ص ٩٦

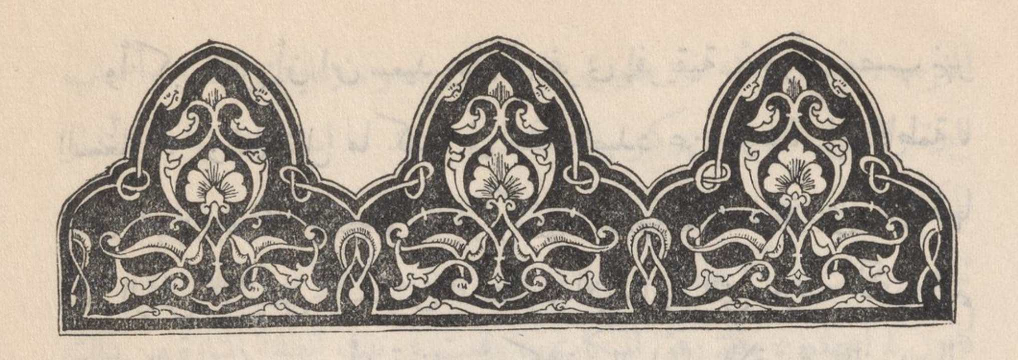
←

الإسكندر الأكبر فى حديقة ، أشجارها من الذهب ، وقباب معابدها مغطاة بالذهب ومرصعة بالأحجار الثمينة . صورة من مخطوط فارسى من تاريخ الإسكندر للشاعر نظامى ، كتب فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م)



[عن بلوشيه]





ابن سعيد وابن فاطمة

ولد على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربى فى غرناطة حول سنة ٦١٠ هـ (١٢١٤ م) . وتلقى العلم فى إشبيلية ، ثم أدّى فريضة الحج مع أبيه ؛ ولكن أباه توفى فى طريقهما للعودة إلى أرض الوطن سنة ٦٣٩ هـ وأقام الابن فى الإسكندرية بضع سنوات ؛ ثم قام برحلات طويلة فى العراق والشام والحجاز وتونس وأرمينية ؛ واتصل ببعض أمراء المسلمين وعلمائهم . وتوفى فى الربع الأخير من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

وقد دون ابن سعيد أخبار بعض رحلاته . وأفاد من مشاهداته فيما ألّف من كتب التاريخ . وقد خلف تواليف كثيرة معظمها مخطوط إلى الآن ، فلم يطبع إلا بعضها وأجزاء من البعض الآخر ، ولا سيما من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » وهو كتاب كبير أتم ابن سعيد تأليفه بعد أن بدأه أبوه وجده من قبله .

وأكبر الظن أن ابن سعيد جال فى غربى إفريقية ، ورأى مصب نهر السنغال . أو لعله نقل ما كتبه فى هذا الصدد عن الرحالة ابن فاطمة ، الذى قام برحلة بحرية جنوبى مراكش ، وغرقت السفينة التى كان فيها عند الرأس الأبيض (جنوبى المستعمرة الإسبانية التى تعرف الآن باسم ساحل الذهب) ، بعد أن توغل فى كشف الساحل الإفريقى الغربى إلى أبعد مما كان معروفاً عند الأوربيين حينذاك [١] .

والظاهر أن ابن فاطمة قام بأسفار طويلة فى أفريقية . ولعله كتب أخبار هذه الرحلات ؛ ولكن شيئاً من آثاره لم يصل إلينا ما خلا الذى نقله عنه ابن سعيد ، حين أشار إليه فى أكثر من موضع واحد .

* * *

ومن طريف ما خلفه ابن سعيد وصف للقاهرة والفسطاط نقله المقرى فى كتابه « نفح الطيب » . وقد جاء فى هذا الوصف : « قال ابن سعيد : ولما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط ، فسار معى إليها أحد أصحاب القرية ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لى بمثلها فى بلد . فركب منها حماراً وأشار إلى أن أركب حماراً آخر، فأنفت من ذلك ، على عادة من أخلفته فى بلاد

---

(١) راجع Ch. de la Roncière : La découverte de l'Afrique au Moyen Age ج ١ ص ٢٣ و ٤٨ — ٤٩ و ٨٠

المغرب . فأخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت . وعند ما استويت راكباً أشار المكارى إلى الحمار فطار بى ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى وعاينت ما كرهته . ولقلة معرفتى بركوب الحمار ، وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى ، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت :

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمير وكحل الغبار
وخلفى مكارٍ يفوق الرياح لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى إلى أن سجدت سجود العثار

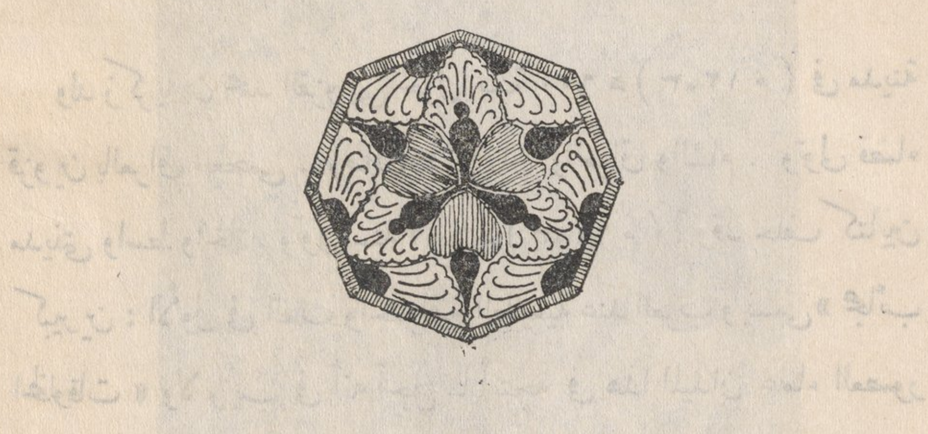
فدفعت إلى المكارى أجرته ، وقلت له : إحسانك أن تتركنى أمشى على رجلى ، ومشيت إلى أن بلغتها . . . ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء ، وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها وهو دون غلق ، يفضى إلى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف . فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال ، إلى أن صرت فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال مالا تفى به إلا مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت

ضده فى جامع إشبيلية وجامع مراكش ؛ ثم دخلت إليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه . وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصناف المسكرات والكعك وما سوى ذلك . والناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا . وفضلات ما كلهم مطروحة فى صحن الجامع ، وفى زواياه العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة . . .

وأما مايرد إلى الفسطاط من متاجر البحر الأسكندرانى والبحر الحجازى فإنه فوق مايوصف ، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى . .

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى ؛ لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر . . . ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمر فى مكان كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون ، ولقد

عاينت يوماً وزير الدولة و بين يديه الأمراء وهو فى موكب جليل ، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان فى موضع طباخين ، والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه . وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك فى جملتهم » .





القزوينى

ولد زكريا بن محمد القزوينى حول سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) فى مدينة قزوين بالعراق العجمى. وطاف فى إيران والعراق والشام. وتولى قضاء مدينتى واسط والحلة. وتوفى سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م). وقد خلف كتابين كبيرين: الأول فى الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب ويسمى «عجائب المخلوقات» ولا ريب فى أنه أجل ما أنتجه فى هذا الميدان علماء العصور الوسطى قاطبة؛ والثانى فى التاريخ وتقويم البلدان وما يتصل بهما، ويسمى «آثار البلاد وأخبار العباد».

وفى الكتاب الثانى ذكر بعض البلاد الفرنسية والألمانية والهولندية مثل ايطرخت Utrecht وأبولده Fulda ومغانجة Mainz وشلشويق Schleswig وواطر بورونة Paderborn. والمعروف أن القزوينى اتصل بكثير من الرحالة، وقرأ آثارهم، وأفاد من مشاهداتهم. فنقل عن

[عن سكسيان]

السكان البيض والسكان السود

صورة فى مخطوط من الترجمة الفارسية لكتاب « عجائب المخلوقات » للقزويني .
ويرجع المخطوط إلى القرن التاسع أو العاشر الهجرى (١٥ – ١٦م)



[عن ساكسيان]

شجرة واق واق والملكة عرجون

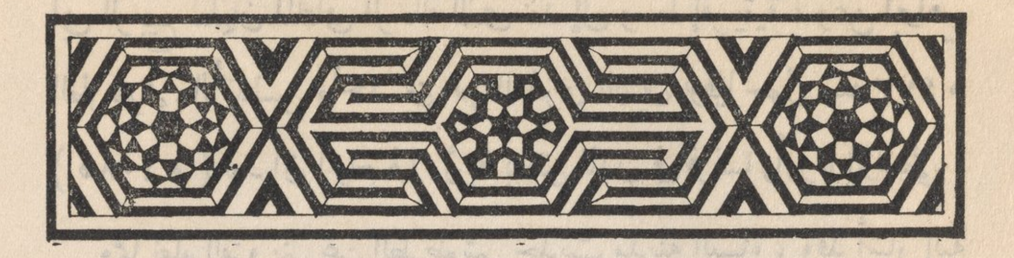
صورة فى مخطوط من الترجمة الفارسية لـكتاب « عجائب المخلوقات »
للقزوينى . ويرجع المخطوط إلى القرن التاسع أو العاشر الهجرى (١٥ — ١٦ م)

أبى الربيع سليمان الملتانى الرحالة الذى نفذ إلى وسط إفريقية ، وعن ابراهيم الطرطوشى الأندلسى وأحمد بن عمر العذرى اللذين توفيا حول سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٥ م) بعد أن أتيح لهما رؤية بعض المدن فى فرنسا وأوربا الوسطى .

ومما نقله القزوينى عن الطرطوشى حديث مدينة النساء ، وقد أشار إليه الدكتور حسين فوزى فى الفصل الذى عقده للكلام على جزائر النساء فى كتابه « حديث السندباد القديم » . نقل القزوينى عن الطرطوشى أن مدينة النساء مدينة كبيرة واسعة الرقعة فى جزيرة من جزائر بحر المغرب ، أهلها نساء لا حكم للرجال عليهن ، يركبن الخيل و يباشرن الحرب بأنفسهن ذوات بأس شديد عند اللقاء ؛ ولهن مماليك يختلف كل مملوك إلى سيدته ، ويقوم بالسحر ليخرج مستتراً قبل انبلاج الصبح . فإذا وضعت إحداهن ذكراً وأدته فى الحال » .

وقد كتب المستشرق الألمانى جاكوب .C. Jacob عدة أبحاث عما ذكره القزوينى من البلاد الأوربية . وعن العلاقات التجارية بين المسلمين وسكان أوربا الوسطى والشمالية .





العبـــدرى

هو محمد بن محمد بن على العبدرى نسبة إلى جده الأعلى عبد الدار ابن قصى القرشى . أصله من بلنسية . ولسنا نعرف من سيرة حياته شيئاً كثيراً . ولـكن الثابت أنه كان على مقربة من الصويرة (مغادور Mogador) فى المغرب الأقصى حين سافر لتأدية فريضة الحج سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) . واتخذ العبدرى فى رحلته طريق إفريقية الشمالى إلى الاسكندرية ، ومنها بالطريق البرى إلى مكة ، وأقام بعد الحج فترة من الزمن بفلسطين ، ثم قفل معرّجا على الإسكندرية . ودوّن أخبار رحلته ، وأشار فيها إلى مواطنه ابن جبير . وقد وصلت إلينا بضع مخطوطات من هذه الرحلة محفوظة فى خزانات متفرقة . ونشر منها المستشرق الفرنسى شار بونو Charbonneau بعض مقتطفات فى المجلة الأسيوية الفرنسية (ج ٤ من الحلقة الخامسة) .

وعنى العبدرى فى رحلته ببيان المواقع الجغرافية ، وذكر المعالم الأثرية ، ودراسة العادات فى البلاد التى مر بها ، فضلا عن الكلام على أعلام الفقهاء المسلمين فى عصره . ومما عرض له شدة ما يلقاه القادمون إلى ثغر الاسكندرية من قسوة مفتشى المكوس. فقد كتب فى هذا الصدد : « ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج ، ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج . ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال. وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى . وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس ، لا حرس الله مهجتهم الخسيسة ، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة ، فمدوا فى الحجاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا من المظالم ، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله ، وما رأيت هذه العادة الذميمة ، والشيمة اللئيمة فى بلد من البلاد ، ولا رأيت فى الناس أقسى قلوباً ، ولا أقل حياءً ومروءة ، ولا أكثر إعراضاً عن الله ، سبحانه ، وجفاءً لأهل دينه من أهل هذا البلد » .





البلوى

هو القاضى أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى غادر الأندلس سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) فى رحلة إلى الأقطار الحجازية لتأدية الفريضة وزيارة بعض الأقطار الإسلامية . فمر بتونس والاسكندرية والقاهرة وأقام بعض الوقت ببيت المقدس . ورافق منها ركب الحاج السورى إلى الحجاز . ثم دوّن أخبار رحلته فى كتاب سماه « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » فرغ من تأليفه سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) وقد وصلت إلينا نسخ مخطوطة منه ، لا تزال محفوظة فى بعض الخزانات العامة .

وعنى البلوى فى أخبار رحلته بوصف البلاد التى مر بها ، والإشارة إلى آثارها وذكر علمائها وأدبائها مع نبذ من أشعارهم ونثرهم . ولكنه نقل كثيرا عن غيره من المؤلفين والرحالة ، ولا سيما عن ابن جبير ؛ فقد أخذ عنه وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة . بل إن معاصره

لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة »
فطن لهذا العيب فى تأليفه ، فكتب عنه فى الكتاب المذكور : « حج وقيَّد
رحلته فى سفر وصف فيه البلاد ومن لقيه بفصول جلب أكثرها من كلام
الاصبهانى وصفوان وغيرهما » .





ابن بطوطة

هو أعظم الرحالة المسلمين قاطبة ، وأكثرهم طوافاً فى الآفاق ، وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار ، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية فى البلاد التى تجوّل فيها . حقّاً إنه لم يكن فقيهاً دقيق الملاحظة سليم الحكم مثل ابن حجر ؛ ولكن حديث رحلاته الطويلة غنى بالأحداث ، يشع الحياة ، ويشهد بأن ابن بطوطة كان من المغامرين الذين لا يقر لهم قرار ، ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة فى الاستمتاع بالحياة إلى أن يركبوا الصعب من الأمور .

ولد محمد بن بطوطة فى مدينة طنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) من أسرة عالية ، أتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب القضاء والنبوغ فى العلوم الشرعية . غادر وطنه سنة ٧٢٥ هـ لأداء فريضة الحج ؛ ولكنه ظل حول ثمانية وعشرين سنة فى أسفار متصلة ورحلات متعاقبة . وألقى

أخيراً عصى التسيار فى مدينة فاس ، واتصل بسلطانها أبى عنان المرينى . وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطه يقصه من أحاديث أسفاره ، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبى أن يدون ما يمليه عليه هذا الرحالة . وتولى ابن جزى كاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها و إضافة بعض الأشعار إليها وتحقيق بعض أجزائها مستعيناً بكتب الرحلات المعروفة فى ذلك العصر ، ولا سيما رحلة ابن جبير . ثم سماها « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وفرغ منها سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) وختمها بعبارة أجزل فيها الثناء على ابن بطوطة ، ولم ينس مولاه السلطان ، فافتخر بأن ذاك الرحالة اختار الاستقرار فى دياره دون غيرها .

قال ابن جزى : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد ابن بطوطة أكرمه الله . ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر . ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد . ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة . واتخذ حضرة فاس قراراً ومستوطناً بعد طول جولاته ، إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأناً ، وأعمهم فضائل ، وأكثرهم إحساناً ، وأشدهم بالواردين عليه عناية ، وأتمهم بما ينتمى إلى طلب العلم حماية . فيجب على مثلى أن يحمد الله تعالى ؛ لأن وفقه فى أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة ، التى اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً » :

*
* *

وقد طبعت رحلة ابن بطوطة فى باريس مع ترجمة فرنسية فى منتصف

القرن الماضى على يد المستشرقين ديفريمرى Defrémery وسانجنتى Sanguinetti وطبعت فى القاهرة طبعتين عربيتين ونشر الأستاذ جب Gibb ملخصاً لها بالانجليزية فى سلسلة Broadway Travellers سنة ١٩٢٩ قدم له بتصدير طيب تحدث فيه عن الرحالة وعصره .

ولعل بعض الاضطراب فى أخبار ابن بطوطة يرجع إلى أنه لم يدون رحلته بنفسه ، وأن ابن جزىّ عدّل فى بعض أخبارها وغير فيها بالحذف أو الإضافة ، بعد أن راجع طائفة من كتب الأسفار الأخرى ، حتى جاءت بعض الأخبار بعيدة عن الدقة ، ولا سيما أحاديث ابن بطوطة عن الصين . فاتهمه بعض النقاد بأنه لم يصل إلى تلك البلاد كما زعم فى رحلته . ولكنا لا نميل إلى تأييد هذا الاتهام كل التأييد ؛ لأن معظم تلك الأحاديث يدعمها ما نعرفه عن رحلة ماركو بولو ، الذى زار الصين أيضاً ، ومكث فيها حول سبعة عشر عاما ، ثم أملى أخبار رحلته على كاتب آخر ، وتوفى قبل أن يقوم ابن بطوطة برحلته الأولى بسنة واحدة .

وقد أشار الدكتور حسين فوزى فى كتابه « حديث السندباد القديم » (ص ١١٨ — ١١٩) إلى قصة نزول ابن بطوطة ببلاد طوالسى فى المحيط الهادى ولاحظ أن وصفه تلك البلاد — ولا سيما نسائها — ذو صلة بأسطورة جزيرة النساء وأسطورة الوقواق . وقال إن تلك القصة من الحكايات التى دعت كثيراً إلى التشكك من سفر ابن بطوطة إلى بلاد الصين وأنه ليس ببعيد أن يكون حديثه عن « أودجا » ملكة تلك البلاد « نوعا من

السطو البرىء على قصة علقت بذهن ابن بطوطة من مطالعاته عن البلاد التى فى شرق الصين ونسبها إلى نفسه » .

وفى رأينا أن هذه القصة وغيرها من القصص الغريبة قد تحملنا على أن نشك فى صحة بعض ما نسبه ابن بطوطة إلى نفسه ؛ ولكنها لا تكفى لأن نشك فى صحة سفره إلى تلك البلاد . والحق أن ما كتبه عن الصين يبدو قائماً على أسس من المشاهدات الشخصية ويجب ألا ننسى فى هذه المناسبة أن مثل هذه الرحلة إلى الصين كانت أمراً ميسوراً لابن بطوطة بوصفه سفير سلطان دلهى . وإذا كان حديثه عنها بعيداً عن الإسهاب والإطالة فلعل السبب فى ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتذكر الأسماء الصينية أو أن ابن جزى محرر الرحلة أمعن فى اختصاره لسبب من الأسباب .

ومهما يكن من الأمر فإننا نشعر حين نقرأ رحلة ابن بطوطة أن ثمت أجزاء يغلب عليها طابع المبالغة ، ونرجح أن الرحالة خصب الخيال وأنه قد يكون مصداقاً للمثل المشهور فى بعض اللغات الأوربية "A beau mentir qui vient de loin" ، ومعناه أن القادمين من البلاد البعيدة لهم أن يختلقوا ما شاؤا ، إذ لا رقيب عليهم . ولكن ليس فى هذا ما ينقص من شأن ابن بطوطة ورحلته . وحسبنا أن نتبعها مرحلة مرحلة ، لنقف عند بعض أجزائها الطريفة ، مما يصف ظاهرة اجتماعية غريبة أو يثبت وجود نظم نظن أنها من مستحدثات العصر الحاضر .

* * *

غادر ابن بطوطة بلاد المغرب الأقصى إلى الأراضى الحجازية فمر ببلاد الجزائر وتونس وطرابلس . والظاهر أن هذا الطريق البرى لم يكن أميناً كل الأمن ؛ فقد علم الرحالة من صديق له بضرورة الإسراع فى السير خوف غارة العرب فى الطريق ؛ وحدث بعد ذلك أن أرادت طوائف الأعراب الإيقاع بالركب قبل الوصول إلى الحدود المصرية . وحرص ابن بطوطة على أن يحدثنا عن بعض شؤونه الخاصة فى هذه المرحلة فأملى ما يأتى : « ووقع بينى و بين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته ، وتزوجت بنتاً لبعض طلبة فاس و بنيت بها بقصر الزعافية ، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوماً وأطعمتهم » .

ثم وصل إلى الإسكندرية ووصفها وصفاً موجزاً ولا سيما المنار وعمود السوارى؛ وتحدث بشىء من الإسهاب عمن زارهم من علمائها ، ومنهم الإمام الزاهد برهان الدين الأعرج الذى توسم فيه حب الرحلة والأسفار ، فأوصاه إذا ذهب إلى الهند أو الصين أن يزور إخواناً سماهم له . وشجع ذلك ابن بطوطه على التفكير فى التوجه إلى تلك البلاد القاصية . على أننا لا نشك فى أنه لم يكن منذ البداية يقصد الحج فحسب ، بل كان يزمع التجول فى العالم الإسلامى ، كما يظهر من قضائه عدة شهور فى الطريق إلى الإسكندرية ومن تعريجه على مدن فى الدلتا بعيدة عن الطريق العادى إلى القاهرة .

ومن طريف ما ذكره ابن بطوطه عن مدينة دمياط أنها كانت مسوّرة ، و إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن الوالى ؛ فمن

كان فى الناس معتبراً أعطاه رجال الإدارة الإذن على ورق مختوم بطابع الوالى ، أما طالب الخروج من عامة الناس فكانوا يطبعون على ذراعه بخاتم الوالى ، فيسمح له حراس باب المدينة بمبارحتها عند رؤية هذا الختم .

ثم وصف ابن بطوطه القاهرة والفسطاط (مصر) فذكر المساجد والمدارس والمستشفيات والقرافة والنيل والأهرام ، وقال عن هذه إنها بنيت لتكون مستودعاً للعلوم ولجثث الملوك . وتحدث عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعن بعض كبار الأمراء والعلماء فى دولته ، ووصف الاحتفال بسفر المحمل . وقال إن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق ، وأن « الروضة » كانت حينئذ مكان النزهة والتفرج وبها البساتين الكثيرة الحسنة ، وأن أهل مصر ذو طرب وسرور ولهو ، وأنه شاهد بها مرة فرجة — بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده — فزيّن كل أهل سوق سوقهم و بقوا على ذلك أياماً .

وسافر الرحالة من القاهرة إلى عيذاب ؛ ولكنه لم يستطع أن يعبر البحر منها ؛ لأنه وجد أميرها الحدربى زعيم البجاة قد ثار على مولاه السلطان الناصر المملوكى ، وأقبل على مطاردة جنوده المماليك ، وأتلف المراكب فتعذر السفر فى البحر . وعاد ابن بطوطة إلى الفسطاط ، ثم رحل عنها إلى فلسطين ولبنان وسورية ؛ على أن يرافق إلى الحجاز ركب الحاج الشامى . ووصف الطريق الصحراوى بين مصر وفلسطين وما كان فيه

من محطات ولاسيما « قطيا » التى كانت تجبى عندها المكوس . قال :
« ثم وصلت إلى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ، و بكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، و بخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته ومن منازلها « قطيا » المشهورة ، و بها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ، و يبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال . . . ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة (إذن أو جواز سفر) من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس ، وتوقياً من الجواسيس العراقيين . وطريقها فى ضمان العرب وقد وكلوا بحفظه ، فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ، ثم يأتى الأمير صباحا فينظر إلى الرمل ، فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء » .

*
* *

وتنقل ابن بطوطة بين مدن فلسطين والشام تنقلا يبدو غير منتظم فى أخبار رحلته . ومهما يكن من الأمر ، فانه وصف غزة و بيت المقدس ، وأعجب بقبة الصخرة وتحدث عن فضلاء القدس ، وانتقل إلى وصف صور وطرابلس الشام وحلب ، وسرد بعض القصص التى تتصل بالنزاع بين

السلطان الناصر محمد بن قلاوون ودولة إيلخانات المغول بالعراق وما تبعه من فرار الأمير قراسنقر نائب حلب إلى إيلخان المغول .

وأسهب ابن بطوطة فى الكلام على دمشق ، فوصف مسجدها الجامع وصفاً دقيقاً ، وتحدث عن حلقات التدريس فيه . ومن أطرف ما كتبه عنها ذكر ما بها من أوقاف لمختلف الشؤون الاجتماعية «منها أوقاف تجهيز البنات الى أزواجهن ، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن؛ ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ؛ ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون و يلبسون ويتزودون لبلادهم ؛ ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك ؛ ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير » وسرد ابن بطوطة قصة طريفة فى هذا الصدد . قال : « مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكا صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصينى ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم « اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى » فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فان سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه و يتغير لأجل ذلك . فكان هذا الوقف جبراً للقلوب »

وطبيعى أن يعنى ابن بطوطة بالكلام على ما يلقاه مواطنوه المغاربة من كرم الوفادة فى دمشق فأشار إلى أن أهلها يحسنون الظن بالمغاربة و يعهدون

بالسور ، السودن بإحسانه

إليهم فى شتى الأعمال ، فلا يحتاج غريب إلى بذل وجهه فى السؤال « وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يأتى له وجه من المعاش » من إمامة مسجد ، أو قراءة بمدرسة ، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزرى بالمروءة . ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر ، من حراسة بستان أو إمامة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك » .

وأشار ابن بطوطه إلى أن من فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة ، فمن كان غنياً فإنه يدعو أصحابه والفقراء . أما الفقراء فإنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعاً .

وكان ابن بطوطة يعنى بالنواحى الاقتصادية فى مشاهداته فيذكر أجل ماتختص به المدن التى يزورها من منتجات زراعية أو صناعية ولا تفوته الإشارة إلى الطريف منها . ومن ذلك قوله فى بعلبك « ويصنع بها أوانى الخشب وملاعقه التى لا نظير لها فى البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت ، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها أخرى إلى أن يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة . وكذلك الملاعق يصنعون منها

عشراً واحدة فى جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد » . . . فليس لنا أن نعجب إذن حين نرى مصانع الغرب فى العصر الحاضر تطبق هذه الفكرة فى إنتاج بعض أنواع الآنية ومنافض السجاير .

* * *

أدى ابن بطوطة بعد ذلك فريضة الحج ، ووصف مناسكها ، وتحدث عن الحجازيين وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية ، وأثنى على أهل مكة ومدح ماشاهده فيها من الكرم وحسن الجوار للغرباء ، ولاحظ أن نساء مكة « فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب ، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً . وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً » !!

ثم غادر الحجاز سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) مع الركب العراقى ، ولكنه تركه عند النجف ، وعرج على واسط والبصرة . وعجب لهذه المدينة التى إلى أهلها كانت انتهت رياسة النحو ، فلم يبق بها من يعرف شيئاً من هذا العلم ، حتى الخطيب يلحن فى الخطبة لحناً كثيراً جلياً .

ولم يشأ ابن بطوطة أن يقفل إلى العراق من الطريق عينها التى دخل منها . وقال فى ذلك إن من عادته فى سفره ألا يعود على طريق سلكها ما أمكنه ذلك . فزار بعض المدن فى غربى إيران مثل تستر وأصبهان

وشيراز وكازرون . وأظهر فى وصفها ذوقاً فنياً وإعجاباً بجمال الطبيعة ، فضلا عن عنايته المعهودة بالناس وأعيادهم وأحوالهم الاقتصادية والعلمية والاجتماعية ؛ ومن ذلك قوله فى وصف مدينة اشتركان : « وهى بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين . ولها مسجد بديع يشقه النهر » .

ورجع ابن بطوطة إلى العراق فنزل بالكوفة ثم انتقل إلى بغداد وأتيح له أن يرى موكب السلطان أبى سعيد ، فوصفه على نحو ما وصف القلقشندى مواكب الفاطميين والأيوبيين والمماليك فى مصر .

ابن بطوطة ٦

* *

وقام ابن بطوطة برحلات من بغداد إلى تبريز والموصل ونصيبين وسنجار وماردين ؛ ثم رافق ركب الحاج العراقى إلى الحجاز فأدى الفريضة ثانية ؛ وأقام يدرس بمكة سنة كاملة . ثم حج مرة ثالثة ؛ وركب البحر إلى اليمن ماراً بسواكن وأشار إلى أن البحر فى هذه المنطقة لا يسافر فيه ليلا لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر . فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب .

وزار الرحالة ربيد ، وقال إنها أملح بلاد اليمن وأجملها ، وليس فى تلك البلاد بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها . وأعجب بجمال نسائها وبقبولهن تزوج الغرباء . وغادرها إلى صنعاء وذكر أن أرضها مبلطة فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . وطبيعى أن يلاحظ ابن بطوطة — وهو الناشىء فى إقليم من أقاليم البحر الأبيض المتوسط حيث يهطل المطر

شتاء — أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل فى أيام القيظ .

وقابل الرحالة سلطان اليمن فى صنعاء ووصف بلاطه وترتيب الطعام فيه ثم أضاف : « وعلى مثل هذا الترتيب سواء ترتيب ملك الهند فى طعامه ؛ فلا أعلم أسلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن ، أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند » .

وسافر ابن بطوطه إلى عدن وأشار فى وصفها إلى ثروة التجار فيها ثم عبر البحر إلى زيلع بالصومال الانجليزى الحالى ، ووصفها بأنها أقذر مدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نتناً « حتى أنه اختار المبيت بالبحر على شدة هوله ولم يبت بها لقذرها » وسافر بعدها إلى مقدشو عاصمة تلك البلاد (وتقع على ساحل المحيط الهندى) . ونزل بأمر السلطان فى دار الطلبة ، وهى معدة لضيافة أهل العلم . وغادرها إلى جزيرة منبسى ثم إلى كُلّوا على ساحل أفريقية الشرقى جنوبى خط الاستواء ، وأهلها من الزنوج . وقال الرحالة عن المسلمين منهم إنهم « أهل جهاد ، لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج » .

وعاد ابن بطوطة إلى بلاد العرب طائفاً حول سواحلها الجنوبية والشرقية ومارا بمدينة ظفار . وعجب لأنه رأى الدواب والغنم فيها تعلف بسمك السردين ، وتحدث عن تجارتها مع الهند وعن سلطانها . ثم مر بهرمز وسيراف والبحرين ؛ ووصف الغواصين على الجوهر ، وعبر الخليج الفارسى إلى القطيف فى إقليم اليمامة ، وانحدر منها إلى مكة فأدى الفريضة مرة

أخرى وشاهد السلطان الناصر محمد يحج ومعه طائفة من الأمراء والمماليك .

وأراد ابن بطوطة أن يبحر إلى اليمن والهند ولكنه لم يجد فى ثغر جدة مركباً أو رفيقاً إلى الجنوب فرجع إلى مصر . وسافر منها إلى الشام على طريق بلبيس . ووصل إلى اللاذقية . وركب منها البحر إلى العلايا فى الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وكانت حينئذ مشتى الروم السلاجقة .

وطاف الرحالة فى كثير من بلاد الأناضول ؛ فوصف أحوالها السياسية قبل أن تصبح دولة واحدة على يد العثمانيين . كما تحدث عن آثارها وصناعاتها وعادات أهلها ، ولا سيما نظام جماعات الإخوان أو الفتيان. وهى جماعات تضم الشبان العزباء أبناء الطائفة الواحدة أو القرية الواحدة ، فيقدمون عليهم رئيساً لهم و يتخذون مقرا لجمعيتهم و يتعاونون على البر وإكرام الضيف الغريب و يشتركون فى الطعام وفى الغناء وفى الرقص وما إلى ذلك من اللهو البرىء . ونظامهم يتصل بنظام الفتوة فى الإسلام . وقد ذكر ابن بطوطة أن فتيان مدينة قونية « لهم فى الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام . ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة » .

وأبحر الرحالة إلى شبه جزيرة القرم من ثغر صنوب شمالى آسيا الصغرى ، ونزل بمرسى « الكرش » . ثم انتقل إلى ثغر كافا ، وكان أكثر سكانه من أهل جنوة ، جعلوه من أهم مراكز التجارة وأكبر أسواق الرقيق . ورحل عنها إلى مدينة القرم . وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك ، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية . وغادر القرم إلى أزاق وأشار إلى كثرة

الخيل بتلك البلاد و إلى أن ثمنها زهيد فينقل التجار ألوفا منها إلى الهند و يغنمون الأرباح الطائلة .

وانتقل إلى مدينة الماجر بالقوقاز حيث لقى يهوديا كلّمه بالعربية وظهر أنه من الأندلس ، وأنه قدم إلى القوقاز بطريق البر الأوربى ، وأن رحلته استغرقت حول أربعة أشهر ، وعلم ابن بطوطة صحة ذلك من بعض التجار الآخرين ممن لهم المعرفة فى هذا الشأن . وأعجب الرحالة بتعظيم النساء فى تلك البلاد حتى قال « وهن أعلى شأنا من الرجال » ووصف بعض مواكبهن ولاحظ أنهن لا يحتجبن « وربما كان مع المرأة منهن زوجها ، فيظنه من يراه بعض خدمها » .

وتحدث ابن بطوطة عن السلطان محمد أوزبك خان وزار معسكره على أربعة أيام من مدينة الماجر فى موضع يقال له « بش دغ » . وكان هذا المعسكر مدينة عظيمة متنقلة « فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعد فى الهواء . وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم » فإذا بلغوا المكان الذى يريدون المقام فيه ، انزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض . وقد أفاض ابن بطوطة فى الكلام على مواكب السلطان محمد أوزبك ومواكب خواتينه أو نسائه الأربع .

وذكر الرحالة أن هذا السلطان أوفد معه دليلا لتوصيله إلى مدينة بلغار على الشاطىء الأيسر لنهر اتل (الفولجا) . وقد مر بنا ذكرها فى الكلام على ابن فضلان . وأراد ابن بطوطة أن يجاوز هذه المدينة إلى الشمال

لزيارة أرض الظلمة (سيبريا وشمالى روسيا) و بينها و بين مدينة بلغار أر بعون يوماً ؛ ولـكنه لم يفعل ، فقال فى رحلته : « ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . والسفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار ، تجرها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها . والـكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها فى الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها ، موقرة بطعامه وشرابه وحطبه ، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر . والدليل بتلك الأرض هو الـكلب الذى سار فيها مراراً كثيرة . وتنتهى قيمته إلى ألف دينار ونحوها . وتر بط العر بة إلى عنقه و يقرن معه ثلاثة من الـكلاب . و يكون هو المقدم وتتبعه سائر الـكلاب بالعر بات ، فإذا وقف وقفت . . . فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أر بعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا إلى منزلهم المعتاد . فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم . فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه ، و إن لم يرضه تركه فيزيدونه . ور بما رفعوا متاعهم ، أعنى أهل الظلمة ، وتركوا أمتاع التجار ، وهكذا بيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم . . . . والقاقم هو أحسن أنواع الفراء ، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار . . . . وهى شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل ، يتركونه فى الفروة على حاله .

والسمور دون ذلك . تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها . »

وطبيعى أن ما يذكره ابن بطوطة فى هذه العبارة مصدره ما سمعه من التجار عن تلك البلاد الشمالية . ولا ريب فى أن قصة تبادل التجارة من دون رؤية أهل تلك البلاد تبدو خيالية إلى حد كبير ، ومع ذلك فقد قرأنا أن الأوربيين عرفوا مثل هذا الأسلوب التجارى مع الهنود الحمر فى أمريكا ، كما عرفه القرطاجنيون مع بعض الأمم فى العصور القديمة وعرفه الأحباش مع بعض القبائل الإفريقية فى القرن السادس الميلادى (١) .

* * *

عاد ابن بطوطة إلى بلاط أوزبك خان فى القوقاز وأتيح له أن يغادره إلى القسطنطينية فى رفقة الخاتون بيلون زوجة هذا السلطان ، وكانت تقصد زيارة أبيها ملك الروم « لتضع حملها عنده » . وكانت هذه الرحلة بطريق البر فى جزيرة البلقان . ولقى الرحالة من رعاية قيصر القسطنطينية ما اعتاد أن يلقاه من سلاطين المسلمين . وذكر أنهم فتشوه قبل الدخول على الإمبراطور « لئلا يكون معه سكين » وأنه علم أن هذا التفتيش عادة لهم مع كل من يدخل على الملك . وكان فى البلاط ترجمان يهودى يتكلم العربية وأصله من بلاد الشام . وقد خلع الملك على ابن بطوطة وأمر له بفرس . والغريب أن الذى يلبس خلعة الملك ويركب فرساً من هداياه

---

(١) راجع Ch. de la Roncière : La Découverte de L'Afrique au Moyen Age ج ١ ص ٩٥ — ٩٦

يطاف به فى أسواق المدينة بالأبواق والطبول ، ليراه الناس . وعلّق ابن بطوطة على ذلك بقوله : « وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك ، لئلا يؤذوا » .

وشاهد الرحالة آثار القسطنطينية . ثم رجع إلى السلطان أوزبك بدون الخاتون بيلون ؛ فقد رغبت فى المقام مع أبيها . وقد شك بعض النقاد فى رحلة ابن بطوطة إلى القسطنطينية ، ولا سيما لأنه لم يوضح الطريق الذى سلكه للوصول إليها ؛ ولأنه أشار إلى لقائه قيصر الروم السابق بعد أن انقطع للعبادة ونزل عن العرش لابنه ، والحقيقة أن هذا القيصر توفى فى السنة السابقة للعام الذى ينم عنه كلام ابن بطوطة . ولكن المستشرق الإنجليزى الأستاذ جب Gibb كتب فى مقدمته للمقتطفات التى نشرها من رحلة ابن بطوطة باللغة الإنجليزية أن غموض الطريق الذى سار فيه الرحالة إلى القسطنطينية يمكن تفسيره بغرابة تلك البلاد فى وجه سائح لا يعرف لغتها ولا تربطه ببيئتها أى صلة ؛ أما لقاء الإمبراطور السابق فيمكن تفسيره بخطأ وقع فيه ابن بطوطة فى حساب السنة التى زار فيها عاصمة الدولة البيزنطية .

*
* *

وسافر ابن بطوطة بعد ذلك إلى خوارزم وبخارى . ومن طريف ما شاهده فى المدينة الأخيرة أن شواهد القبور الموجودة فى مدافن علمائها كانت تتضمن أسماء الكتب التى صنفوها فى حياتهم . وقد أعجب الرحالة

بهذا الأسلوب فى تخليد ذكراهم ؛ فنقل بعض نصوص تلك الشواهد ؛ ولكنه أضاعها بعد ذلك . وأشار إلى ذلك بقوله : « وزرت ببخارى قبر الإمام العالم أبى عبد الله البخارى مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضى الله عنه . وعليه مكتوب : هذا قبر محمد بن إسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا . وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم . وكنت قيدت من ذلك كثيراً ؛ وضاع منى فى جملة ما ضاع لى لما سلبنى كفار الهند فى البحر » .

ثم واصل ابن بطوطة أسفاره إلى سمرقند وترمذ و بلخ وهراة وطوس ونيسابور و بسطام وغزنة وكابل . ثم دخل بلاد الهند سنة ٧٣٤هـ (١٣٣٣م) واتصل بسلطانها محمد بن تغلق . وتولى منصب القضاء فى دهلى . وأقام فيها حول ثمانى سنين . وترك فى رحلته وصفاً حسناً لكثير من مدنها وآثارها ونباتها وحيوانها . كما تحدث عن أمراء المسلمين فيها ، ومن كان يفد عليهم من أعلام الغرباء . وأشار إلى كثير من عادات الهنود وأحوالهم الاجتماعية ، فذكر مثلا كيف يتشرف نساء الهندوس بإحراق أنفسهن بعد موت أزواجهن . وقال إن التى لا تفعل ذلك تقيم عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها . كما ذكر الذين يغرقون أنفسهم فى نهر الكنج تقرباً إلى معبودهم .

وطبيعى أنه أسهب فى الكلام على مدينة دهلى وعمائرها وسكانها ومن حكمها من الأمراء المسلمين ، ولا سيما السلطان محمد شاه بن تغلق ؛ فقد أفاض

فى وصف بلاطه ومراسيم احتفالاته وفيض كرمه وعطاياه واستقباله للملوك والأمراء ؛ ولكنه وصف إلى جنب ذلك قسوته وشغفه بإراقة الدماء . والحق أن ابن بطوطة أتيح له أن يكتب فى وصف هذا السلطان والمتصلين به ما لم يظفر التاريخ الإسلامى بمثله عن بلاط أى أمير آخر . ولم يكن ابن بطوطة مرضياً عنه دائماً فى بلاط ابن تغلق فقد كان هذا السلطان يقصيه أحياناً ويقربه أحياناً أخرى .

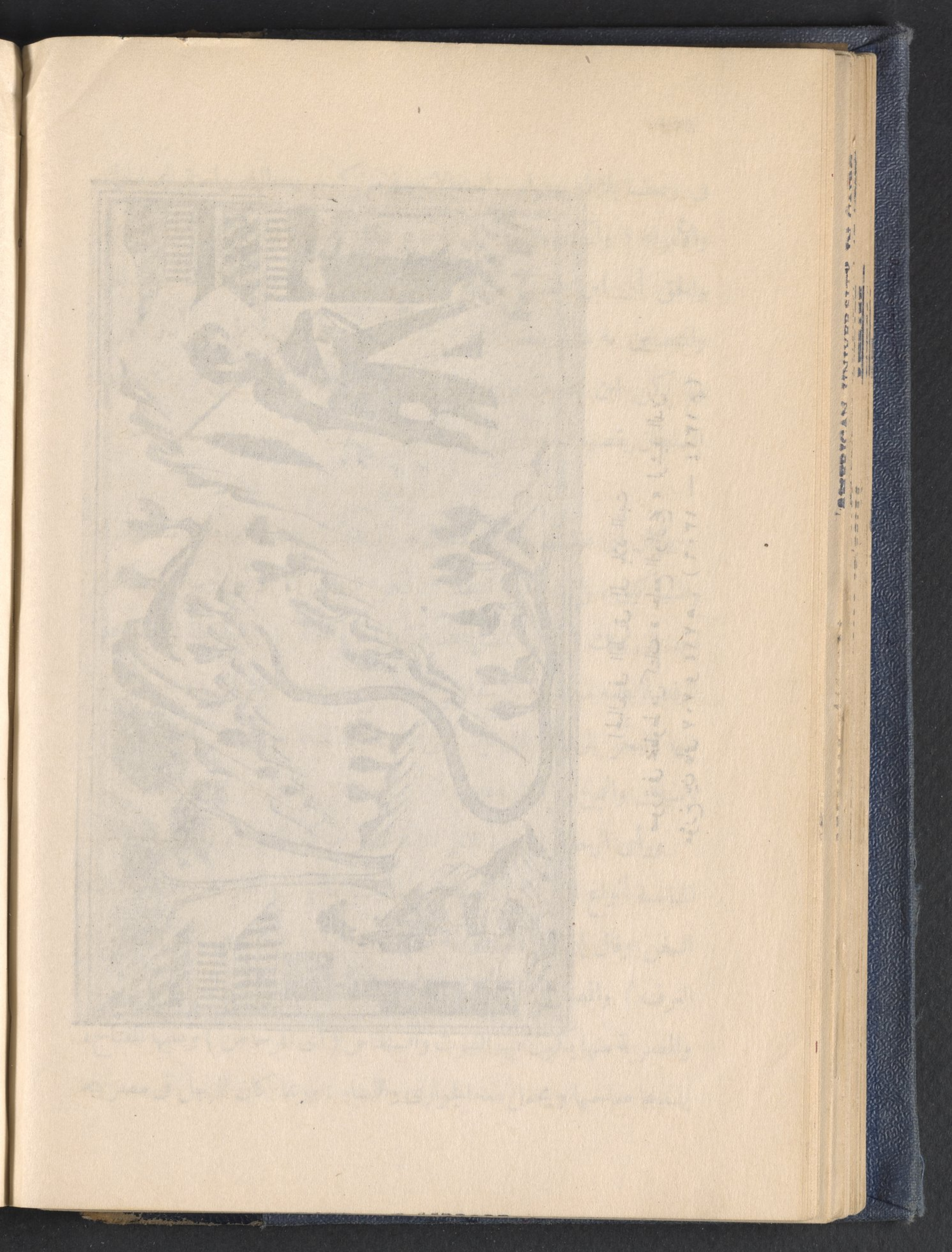
***

وكان أن غضب عليه السلطان مرة ، فاعتزل الخدمة ووهب ماله للفقراء والمساكين ، ولازم أحد الزهاد ؛ ولكن السلطان أراد أن يرسل وفداً من قبله إلى ملك الصين يحمل هدية سنية . واختار ابن بطوطة لرياسة هذا الوفد لما علمه من حبه للأسفار والرحلات . ووصل الوفد إلى قندهار وركب منها البحر إلى ثغر قاليقوط التى كانت تقصدها سفن أهل الصين وجاوة وسيلان واليمن وإيران وغيرها .

ورأى الرحالة فى هذا الثغر ثلاثة عشر مركباً للصين . ووصف فى هذه المناسبة أنواع المراكب الصينية وأساليب بنائها . وأشار إلى ضخامة تلك السفن وقال إن للمركب أربعة ظهور . ويكون فيه البيوت (أى مجموعة الغرف) والمصارى (أى مجموعة الغرف وما يتبعها) والغرف للتجار . والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس (أى المرحاض) وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل فى مصريته



الجبال فى الطريق إلى بلاد التبت
صورة فى مخطوط من كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين
مؤرخ بين عامى ٧٠٧ و ٧١٤ هـ . (١٣٠٦ — ١٣١٤ م)



فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد » وأضاف ابن بطوطة أن البحارة كانوا يسكنون مع أسراتهم فى السفن ، وأنهم كانوا يزرعون الخضر والبقول فى أحواض من خشب .

ثم شاء القدر أن هبت على مرسى قاليقوط عاصفة شديدة ، قذفت إلى عرض البحر بالمركب الذى كانت فيه الهدية التى يحملها الوفد إلى ملك الصين ولكن ابن بطوطة نفسه كان وقتئذ بالشاطىء . وكان متاعه وغلمانه وجواريه بسفينة أخرى . فلما رأى أهل هذه السفينة ما حل بالسفينة الكبرى التى كانت تحمل الهدية أقلعوا ؛ و بقى ابن بطوطة منفرداً على الساحل لا يملك إلا عشرة دنانير و بساطاً كان يفترشه . فلم يشأ أن يعود إلى سلطان دهلى ؛ بل تنقل بين الساحلين الغربى والشرقى فى شبه جزيرة الهند . واشتغل حيناً بالغزو والجهاد فى خدمة جمال الدين سلطان مدينة هنور .

ثم سافر إلى جزائر ذيبة المهل (جزائر الملديف الحالية) . وتولى القضاء فيها وأعجب بصلاح أهلها وتقواهم . وكان أكثر نساء هذه الجزائر لا يلبسن سوى « فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل » وسائر أجسادهن مكشوفة . وكن يمضين كذلك فى الأسواق وغيرها . فجهد ابن بطوطة لما ولى القضاء بها أن يقطع تلك العادة و يأمرهن باللباس فلم يوفق . ومما عجب له الرحالة « أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار ، على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها ، وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يرين ذلك عيباً . و يفعله أكثر بناتهم ، فتجد فى دار الإنسان الغنى منهن

العشر والعشرين . وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته »

وكان حكم هذه الجزائر قد آل إلى السلطانة خديجة بنت جلال الدين البنجالى حين لم يبق من بيت الملك غيرها وأختان لها . وكان ابن بطوطة صارماً فى منصب القضاء ؛ فأبعد عنه قلوب بعض الوزراء والأعيان فى الجزائر . ولم يشأ البقاء فيها بعد ذلك ؛ فغادرها إلى جزيرة سيلان ، ثم إلى ساحل الهند الشرقى فإقليم بنجالة فشبه جزيرة الملايو فسومطرة .

*
* *

ووصل ابن بطوطة إلى الصين . وفى رحلته بيانات طيبة عن أحوال الصينيين من المسلمين والوثنيين ، وعن إتقانهم الصناعات والفنون ، ولا سيما التصوير وصناعة الصينى . كما أن فيها أقدم إشارة إلى استخدام ورق النقد فى المعاملات . فقد ذكر الرحالة أن عادة التجار فى الصين أن يسبكوا ما يكون عندهم من الذهب والفضة قطعاً ، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ، وأن « أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرنا » . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد . كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان ، حملها إلى دار كدار السكة عندنا ؛ فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك . ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها » .

ومما ذكره ابن بطوطة فى معرض الحديث عن مهارة أهل الصين فى

التصوير أن من عاداتهم أن يصوروا كل من يمر بهم من الغرباء « وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد ، و بحث عنه ، فحيثما وجد فى تلك الصورة أُخذ » .

ولابن بطوطة إشارات طريفة إلى عادة رجال الإدارة والبحرية فى تقييد أسماء البحارة ورجال السفن قبل الإذن لها بالسفر فإذا عادت « صعدوا إليها وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس ، فإذا فقدوا أحداً ممن قيدوه طالبوا صاحب المركب به فإما أن يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له ، و إلا أخذ فيه فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها . ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم . فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد جميع ما فيه مالا للمخزن » .

وأشار ابن بطوطة إلى ما كان للمسلمين من امتيازات فى الصين ، فقال « ولابد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام ، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه ، وقاض يقضى بينهم » وذكر أن كل مدينة من مدن الصين كان فيها حى للمسلمين يسكنونه و يتخذون فيه المساجد ، وأن الحكومة كانت تعنى بمراقبة التجار المسلمين وضمان أموالهم التى يدخلون البلاد بها ، بحيث لا يمكنهم إنفاقها فى الفساد . وكان أولو الأمر فى الصين حريصين أشد الحرص على ألا يقال إن المسلمين يخسرون أموالهم فى الصين .

وأعجب ابن بطوطة ببيوت أهل الصين فقال : « وجميع بلاد الصين

يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره فى وسطها كمثل ما هى بلدة سجلماسة ببلادنا . وبهذا عظمت بلادهم » ، كما أعجب ببعض منشآت الشؤون الاجتماعية ، ولا سيما بمعبد كبير شاهده فى مدينة « جينى كلان » كان فيه بيوت لسكن الضريرين وذوى العاهات وفيه مستشفى كبير . وكان الأيتام والأرامل والشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب يحصلون من هذا المعهد على ما يلزمهم من النفقة والكسوة . وطبيعى أن المعهد كانت له أوقاف غنية .

ويبدو من رحلة ابن بطوطة أن المسافرين المسلمين القادمين إلى الصين كانوا يلقون من بنى دينهم فى تلك البلاد أعظم الترحيب والإكرام . من ذلك أن ابن بطوطة ، حين وصل إلى مدينة قنجنفو ، خرج إليه القاضى وشيخ الإسلام والتجار ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب ، وأتوه بالخيل ، فركب ومشوا بين يديه ولم يركب معه غير القاضى والشيخ . وكان المسلمون فى البلاد الصينية التى ينزلها ابن بطوطة يقيمون له الولائم ويقدمون له الهدايا ويصحبونه إلى رحلات فى القوارب ومعهم المغنون والموسيقيون ، يغنون بالصينية والعربية والفارسية .

ومن أعلام المسلمين الذين لقيهم ابن بطوطة فى بلاد الصين أسرة مصرية الأصل نزل بدارها فى مدينة « خنسا » . قال الرحالة : « ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى . وكان أحد التجار الكبار ؛ استحسن هذه المدينة فاستوطنها . وعرفت بالنسبة إليه ، وأورث عقبه بها الجاه

والحرمة . وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين . ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة . وبنى عثمان المسجد الجامع بهذه المدينة ، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة . وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير . وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً ، فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ، ولا يزالون يحتفلون فى أطعمتهم ، ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة » .

ومن غريب ما ذكره ابن بطوطة عن نظم التأمين الاجتماعى فى الصين أن العامل أو الصانع كان يعفى من العمل وتنفق عليه الحكومة إذا بلغ الخمسين ، وأن من بلغ ستين سنة عدّوه كالصبى فلم تجر عليه الأحكام » .

*
* *

وعاد ابن بطوطة من الصين معرّجا على سومطرة ، حيث حظى بضيافة سلطانها الملك الظاهر وأتيح له أن يشهد أعراس ابنه وولى عهده مع بنت أخيه ؛ ولاحظ أن الزفاف بدأ بخروج العروس « من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ، ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه ، وكلهن باديات الوجوه ، ينظر إليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع . وليست تلك بعادة لهن إلا فى الأعراس خاصة . وصعدت العروس المنبر ، وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ؛ ثم جاء الزوج على فيل مزين ، على ظهره سرير ، وفوقه قبة والتاج على رأس العروس المذكور ، عن يمينه ويساره نحو مائة

من أبناء الملوك والأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤوسهم الشواشى المرصعة وهم أتراب العروس ، وليس فيهم ذو لحية . ونثرت الدنانير على الناس عند دخوله . وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك . ونزل ابنه فقبل رجله ، وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده . وجلس إلى جانبها والخواتين يروّحن عليها . . . . » .

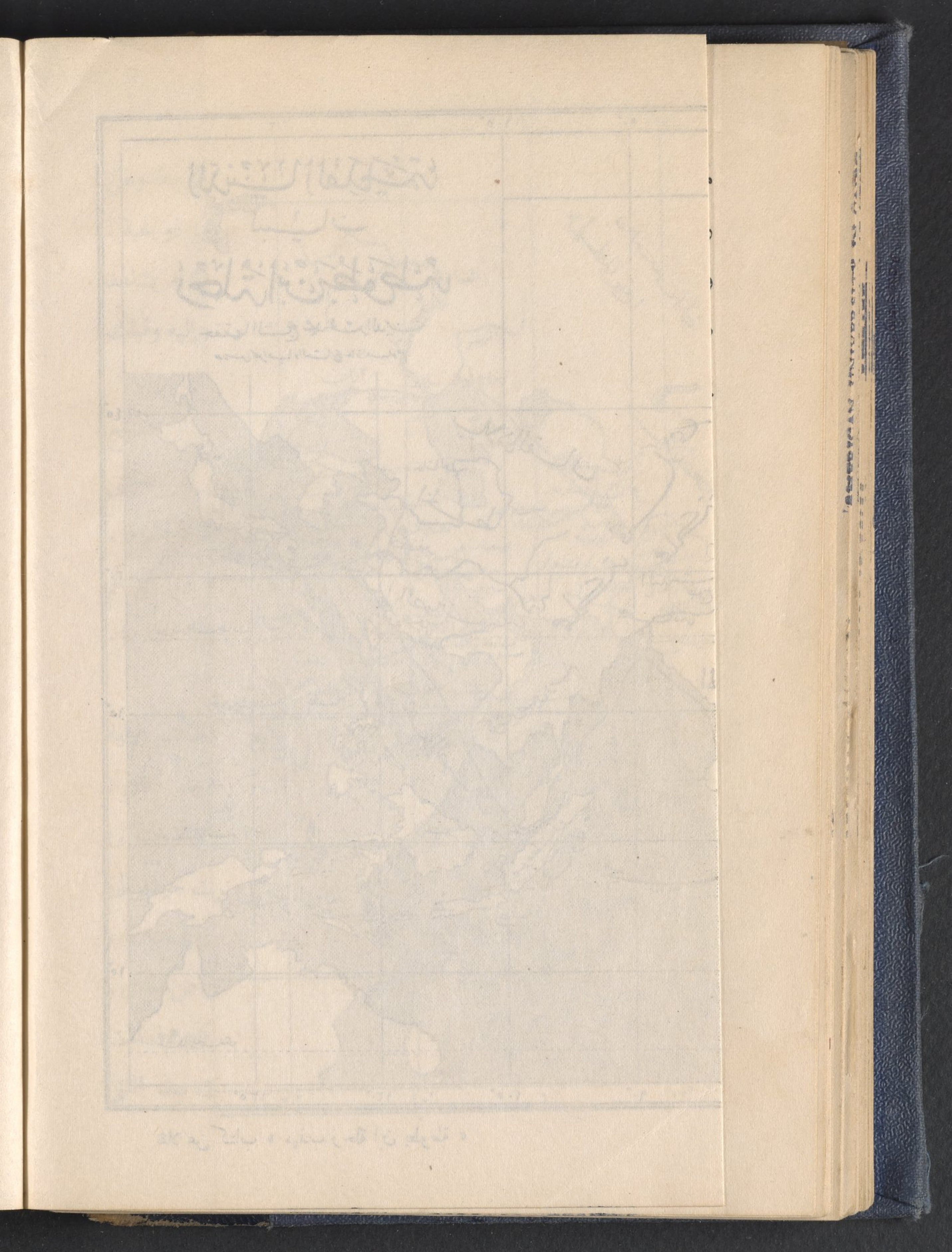
ولم يشأ ابن بطوطة أن يعود إلى دلهى ثانية وأستأنف أسفاره إلى الخليج الفارسى والعراق . ولقى فى بغداد بعض المغاربة . فعرف منهم خبر الهزيمة التى حلت بأبى الحسن سلطان المغرب فى قتال الفونس الحادى عشر ملك قشتالة . (وكان ذلك على مقربة من طريف سنة ٧٤١ هـ أى ١٣٤٠ م) كما علم بسقوط الجزيرة الخضراء فى يد الأسبان المسيحيين سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢م) .

* * *

ثم وصل إلى دمشق . وذكر فى الكلام عليها حديثاً يؤيد ما أشرنا إليه من تزوج الرحالة المسلمين فى كثير من البلاد التى يمرون بها . قال : « وكانت مدة غيبى عنها عشرين سنة كاملة . وكنت تركت بها زوجة لى حاملا . وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولداً ذكراً . فبعثت حينئذ إلى جدّه للأم ، وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين ديناراً ذهباً هندياً . فحين وصولى إلى دمشق فى هذه الكرة لم يكن لى هم إلا السؤال عن ولدى . فدخلت المسجد فوقف لى نور الدين السخاوى إمام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفنى ، فعرفته بنفسى وسألته عن الولد فقال : مات منذ اثنتى



نقلا عن كتاب « مهذب رحلة ابن بطوطة »



عشرة سنة ، وأخبرنى أن فقيهاً من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية ؛ فسرت إليه لأسأله عن والدى وأهلى ، فوجدته شيخاً كبيراً فسلمت عليه وانتسبت له ، فأخبرنى أن والدى توفى منذ خمس عشرة سنة ، وأن الوالدة بقيد الحياة » .

وكان ابن بطوطة بالشام حين انتشر الطاعون فى مدنها سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فأشار إلى كثرة ضحاياه وواصل السفر إلى مصر ، ووجد أن الوباء كان قد انتشر فى بعض مدنها ثم خفت حدّته . واتجه الرحالة إلى عيذاب حيث أبحر إلى الحجاز لتأدية الفريضة مرة أخرى . ثم قصد إلى فلسطين ومنها إلى القاهرة .

وأكبر الظن أنه لم يكن قد عقد العزم على الرجوع إلى وطنه بعد ؛ ولكنه سمع فى مصر عن عظمة السلطان أبى عنان ونجاحه فى النهضة ببلاد المغرب وإحسانه على الخاص والعام ، فأراد أن يقصد بابه ، ويمم شطر وطنه الأول .

*
* *

أبحر ابن بطوطة من مصر إلى تونس فى صفر سنة ٧٥٠ (مايو سنة ١٣٤٩) . وسافر من تونس على سفينة مع القطلانيين مرّت بجزيرة سردانية . ولم تكن رحلته إلى أرض الوطن خالية من الأخطار ؛ فقد كاد أن يقع فى أيدى القرصان المسيحيين مرتين ؛ ولكنه وصل أخيراً إلى مدينة فاس ونزل فى بلاط السلطان أبى عنان . ثم سافر إلى طنجة وزار

قبر والدته ؛ وعزج على مدينة سبته ، فمرض بها ثلاثة أشهر . وكأنه أراد ألا يلقى عصا التسيار قبل أن يزور الدولتين الإسلاميتين اللتين لم تطأهما قدماه بعدُ وهما الأندلس ومملكة المسلمين فى السودان الغربى .

*
* *

قام ابن بطوطة إذن برحلة ثانية ، زار فيها الأندلس . وأشار إلى موت الفونس الحادى عشر ملك قشتالة أثناء حصاره جبل طارق وعمله على الاستيلاء على ما بقى بأيدى المسلمين من بلاد الأندلس . وأتيح للرحالة أن يشاهد الحصون وأعمال الدفاع التى أقامها فى جبل طارق السلطان أبو عنان وأبوه السلطان ابو الحسن . ثم زار مالقة وأعجب بالخزف النفيس ذى البريق المعدنى ، وكان يصنع بها و يصدر إلى أقاصى البلاد . ودخل بعد ذلك غرناطة وأعجب بجمال موقعها وما بها من قصور و بساتين و كروم .

*
* *

وعاد ابن بطوطة إلى مدينة فاس عاقدا العزم على السفر فى رحلة ثالثة ليزور بلاد المسلمين فى السودان الغربى ؛ وقيل إن السلطان أوفده فى مهمة إلى تلك البلاد . ومهما يكن من الأمر فقد استأذن فى الرحيل ، واتجه إلى سجلماسة وانضم فيها إلى جماعة من التجار (١) . وبدأت القافلة رحلتها عبر الصحراء الكبرى فى أول سنة ٧٥٣ (فبراير سنة ١٣٥٢) ، ووصلت بعد

---

(١) كانت العلاقات التجارية متصلة بين بلاد المغرب وأقاليم السودان . راجع Ch de la Roncière : La Conquête de l'Afrique au Moyen Age ج ١ ص ٨٧ — ٨٨

خمسة وعشرين يوماً إلى مدينة تغازى حيث يستخرج الملح . ولاحظ ابن بطوطة أن السودان يتعاملون بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة . ووصلت القافلة إلى « تاسرهلا » ، ومنها يبعث « التكشيف » إلى مدينة إيوالاتن . وقد شرح ابن بطوطة أن التكشيف دليل من قبيلة مسوّفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيوالاتن بكتب من المسافرين إلى أصحابهم بها ، ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع ليال . ومن لم يكن له صاحب فى إيوالاتن كتب إلى أحد المشهورين بالفضل من تجارها وإذا حدث أن تاه هذا الدليل أو هلك ، فلا يعلم أهل إيوالاتن بالقافلة ؛ وربما هلك من فيها أو الكثير منهم . وذكر ابن بطوطة أن دليل قافلته كان « أعور العين الواحدة مريض الثانية » وكان مع ذلك أعرف الناس بالطريق.

وقد تحدث الرحالة عن شدة الحر فى الصحراء وذكر أن القافلة كانت ترحل بعد صلاة العصر وتسير الليل كله وتقف عند الصباح .

وصلت القافلة إلى إيوالاتن بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة . وذكر ابن بطوطة أنها أول أقاليم مملكة السودان وأقصاها شمالا وأن أهلها كانوا يحتقرون البيض ، وأن ثيابهم كانت من المنسوجات المصرية ، وأن معظمهم من قبيلة مسوّفة . وكان النساء فى هذه القبيلة جميلات وكن أعظم شأناً من الرجال وقد عجب الرحالة من مركز المرأة واختلاط الجنسين فى تلك القبيلة فقال . « وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب . فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله . ولا يرث الرجل

إلا أبناء أخته دون بنيه . وذلك شيء ما رأيته فى الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود . وأما هؤلاء فهم مسلمون محفظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن . وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات . ومن أراد التزوج منهن تزوج ، لكنهن لا يسافرن مع الزوج . ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها . والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها ، فلا ينكر ذلك . »

وروى ابن بطوطة قصتين فى هذا الشأن . قال فى الأولى : « دخلت يوماً على القاضى بايوالاتن بعد إذنه فى الدخول ، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن ، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحكت منى ولم يدركها خجل . وقال لى القاضى : « لمَ ترجع ؟ إنها صاحبتى » فعجبت من شأنهما ، فإنه من الفقهاء الحجاج ، وأُخبرت أنه استأذن من السلطان فى الحج فى ذلك العام مع صاحبته لا أدرى أهى هذه أم لا ، فلم يأذن له »

وقال ابن بطوطة فى الحكاية الثانية : دخلت يوماً على أبى محمد بندكان المسوّفى الذى قدمنا فى صحبته فوجدته قاعداً على بساط وفى وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له : ما هذه المرأة ؟ فقال : هى زوجتى ، فقلت : وما الرجل الذى معها منها ؟ فقال : هو صاحبها . فقلت له : أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ فقال لى : مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة

لا تهمة فيها ، ولسن كنساء بلادكم ؛ فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها واستدعانى مرات فلم أجبه ».

غادر ابن بطوطة إيوالاتن ميمماً شطر « مالى » الواقعة جنوبيها على مسيرة أربعة وعشرين يوماً . وا كترى هو وثلاثة من أصحابه دليـلا من قبيلة مسوفة . ومر بطريق فيها أشجار ضخمة قد تستظل القافلة بظل الشجرة الواحدة منها . و بعض هذه الأشجار يحفظ فيه ماء المطر ويشرب الناس منه . وقد ذكر الأستاذ جب Gibb فى تعليقه على هذا الوصف أن هذا النوع من الشجر أدخل من أفريقية الغربية إلى إقليم كردفان فى القرن الثامن عشر وكانوا يفرغون جذوعه لتخزن فيها المياه فتقوم مقام الآبار .

وأشار الرحالة إلى أن المسافر فى تلك البلاد لا يحمل زاداً و إنما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج أو الخرز و بعض السلع العطرية ، فإذا وصل إلى إحدى القرى جاء نساء السودان بالذرة واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوفى — وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو — والعصيدة ودقيق اللوبيا ، فيشترى منهن ما أحب من ذلك .

ووصل ابن بطوطة إلى مدينة كارسخو على نهر النيجر وظنه نهر النيل وقال إنه ينحدر من كارسخو إلى بلدة كابره فبلدة زاغة ثم إلى تنبكتو . ولاحظ أن أهل زاغة قدماء فى الإسلام متمسكون بأهداب الدين ومقبلون على طلب العلم . والواقع أن هذه المنطقة ، وهى على فرع النيجر الشمالى الغربى مقر مملكة تكرور التى كانت أول معقل للإسلام بالسودان فى بداءة القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

وكان ابن بطوطة يعتقد أن « النيل » (أى النيجر) ينحدر من تمبكتو إلى بلدة كوكو ثم إلى بلدة مولى فبلدة يوفى ثم ينحدر إلى بلاد النوبة ودنقلة . ولعل وجود بحر الغزال كان سبباً فى هذا الخطأ . ولكن معظم الرحالة والجغرافيين كانوا يعتقدون أن نهر النيجر يصب غرباً وكانوا يخلطون بينه وبين نهر السنغال ، إلى أن أتيح للطبيب البريطانى منجو بارك Mungo Park أن يقوم برحلته لكشف حوض النيجر سنة ١٧٩٥ ، فيتقدم فى إقليم غمبيا ويعبر نهر السنغال ثم يتبع مجرى النيجر إلى مسافة قريبة من تمبكتو .

ووصل ابن بطوطة أخيراً إلى مدينة مالى حاضرة مملكة السودان المسماة بهذا الاسم . وأشار إلى أن من عادات أولى الأمر فيها أن يمنعوا الناس دخولها إلا بالإذن . وكان الرحالة قد كتب إلى زعماء الجالية العربية فيها فحصلوا له على ذلك الإذن وإكتروا له داراً . وكان بين أولئك الزعماء تاجر مصرى اسمه شمس الدين بن النقويس المصرى . والظاهر أن هذه المدينة كان فيها جالية مصرية بارزة ، وقد أشار ابن بطوطة إلى مرض أصيب به فيها وكان علاجه على يد أحد أفراد تلك الجالية .

وقد ذكر الرحالة بخل منسا سليمان سلطان مالى فى عبارة ظريفة تشهد بما اعتاده من كرم الأمراء والسلاطين ، قال « ولما انصرفت بعث إلى الضيافة ، فوجهت إلى دار القاضى . وبعث القاضى بها رجاله إلى دار ابن الفقيه . فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافى القدمين ، فدخل علىّ وقال « قم قد جاءك قماش السلطان وهديته . فقمت وظننت أنها الخلع والأموال،

فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلو بالغرتى ، وقرعة فيها لبن رائب ؛ فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشىء الحقير » .

وطبيعى أن السودان فى تلك المملكة كانوا يتكلمون لغة غير العربية . ولعل المسلمين المقيمين فيها من العرب والبربر كانوا يتعلمون تلك اللغة الوطنية . وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود مترجم فى بلاط الملك كان وساطة الكلام بينه و بين من لا يعرفون لغة البلاد . وكان لهذا المترجم شأن كبير بارز فى البلاط فكان كالأمين الأول للملك .

وتحدث ابن بطوطة عن كثير من أحوال السكان فى تلك البلاد وعن عاداتهم البدائية وأعجب بقلة الظلم فى بلادهم ، وشمول الأمن بحيث لا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ؛ كما ذكر أنهم لا يتعرضون لمال من يموت فى بلادهم من البيض ، يتركونه لثقة من جنس المتوفى حتى يأخذه مستحقه . وأشار إلى عنايتهم بحفظ القرآن و إقبالهم على صلاة الجماعة وحرصهم على لبس الثياب البيض النظيفة يوم الجمعة ، حتى إنه إذا لم يكن لأحدهم إلا قميص بال غسله ونظفه وشهد به الجمعة . ولكن ضايق ابن بطوطة أن رأى الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات كما أغمه أن النساء كن يدخلن على السلطان عرايا غير مستترات وأن بنات السلطان نفسه كن عرايا .

ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عن السودان أن منسا موسى أحد ملوك مالى كان قد غضب على قاض من البيض فنفاه إلى بلاد الزنوج

الذين يأكلون بنى آدم . وأقام هذا القاضى عندهم أربع سنين ثم رجع إلى مملكة مالى . ولم يأكله الزنوج لبياضه ؛ فقد كانوا يعتقدون أن أكل الأبيض مضر لأنه لم ينضج بعد ! . أما الأسود فهو وحده ذو اللحم الناضج .

وغادر الرحالة مدينة مالى ورأى فى النيجر فرس البحر لأول مرة فى حياته . ثم وصل إلى مدينة تمبكتو وشاهد بها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية وكان قد جاءها ليقتضى مالاً له كان السلطان منسا موسى اقترضه منه لما كان بمصر متوجهاً إلى الحج . وشاهد كذلك قبر الشاعر المهندس أبى إسحق الساحلى الغرناطى . وكان هذا الشاعر قد لقى منسا موسى فى مكة أثناء تأدية فريضة الحج ؛ ثم صحبه بعد ذلك إلى بلاد السودان ، وشيّد له قصره الملكى والمسجد الجامع فى تمبكتو[١] .

واصل ابن بطوطة السفر شرقاً فى الصحراء حتى وصل إلى مدينة تكدّا . وذكر أن أهلها لا عمل لهم إلا التجارة « يسافرون كل عام إلى مِصر ويجلبون ما بها من حسان الثياب وسواها » . وكان سلطانها من البربر ؛ ولعله كان زعيم قبيلة المسوفة . وذكر ابن بطوطة أن أهل تَـكَدّا كانوا فى رفاهية وسعة حال وكانوا يتفاخرون بكثرة العبيد والخادمات . وكان معدن النحاس يوجد بكثرة على مقربة من بلدهم فكانوا يأتون به ،

---

(١) راجع Ch. de la Roncière : La Découverte de l'Afrique au Moyen Age ج ١ ص ١١٦ — ١٦٣ .

ويسبكونه فى دورهم ، ويصنعون منه قضباناً فى طول شبر ونصف بعضها دقاق وبعضها غلاظ ، ويتخذون هذه القضبان صرفاً لهم فيشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح .

*
* *

وكانت هذه المدينة آخر مرحلة فى رحلة ابن بطوطة ، فقد وصل إليه فيها رسول من قبل السلطان أبى عنان ، يطلب إليه الرجوع إلى فاس . فغادر تكدّا فى الحادى عشر من شهر شعبان سنة ٧٥٤ هـ (١١ سبتمبر سنة ١٣٥٣) ووصل إلى فاس بعد سفر ثلاثة شهور .

والحق أن رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان ليست أقل شأناً من رحلته الكبرى ؛ فقد كان أول رحالة جاب الآفاق المجهولة فى الصحراء الكبرى ؛ وكتب عن مشاهداته فيها[1] .

*
* *

وقد وفق ابن بطوطة كل التوفيق فيما أملاه عن رحلته ، فخلف لنا صوراً صادقة ، كلها حياة للعصر الذى عاش فيه ، ووصف لنا الأشخاص والجماعات وصفاً يجعلنا نشعر كأنهم بين أيدينا وزار كل الدول الإسلامية فى عصره ، وقطع فى أسفاره مسافة قدرها بعض العلماء بخمسة وسبعين ألف ميل ، وهى مسافة لا يظن أن رحالة غيره قطعها قبل استخدام البحار فى وسائل السفر . لذلك كله خصصناه بالإطالة فى هذا العرض .

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٨٩ — ٩٤ .



عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهرى

هو زين الدين عبد الباسط ، ولد فى ملطية فى رجب سنة ٨٤٤ (ديسمبر سنة ١٤٤٠) . وكان أبوه خليل بن شاهين الظاهرى من أمراء المماليك وأعلام رجال الإدارة فى عصره بل كان من كبار المؤلفين كما يشهد بذلك كتابه « زبدة كشف الممالك و بيان الطرق والمسالك » . وهو عرض للوظائف السياسية والإدارية فى امبراطورية المماليك فى القرنين السابع والثامن بعد الهجرة (١٣ — ١٤ م)

ولكن عبد الباسط لم يتبع أباه فى سلك الإدارة بل درس الفقه والأدب والطب واشتغل بالتجارة والتأليف . ومن آثاره كتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » : ويبحث فى تاريخ الدول الإسلامية ولا سيما مصر وسورية ، على نمط كتاب السلوك للمقريزى . ولم يصلنا منه إلا أجزاء فى مخطوطتين بمكتبة الفاتيكان . وتشمل إحداهما الكلام على ما بين سنتى

٨٦٥ و ٨٧٤ هـ . وفيها إشارات إلى رحلة طويلة قام بها عبد الباسط فى بلاد المغرب للتجارة ودراسة الطب على أعلام الأطباء فى تلك البلاد .

وقد أتيح له أن يقضى فى هذه الرحلة بضع سنوات فى زيارة الممالك والدويلات الإفريقية الواقعة فى حكم الحفصيين و بنى عبد الواد و بنى نصر. وكان سفره من الأسكندرية فى شوال سنة ٨٦٦ هـ (يوليه سنة ١٤٦٢) على إحدى سفن البندقية ومر بجزيرة رودس ثم نزل فى تونس بعد رحلة بحرية دامت ثلاثة وثلاثين يوماً .

و بعد أن أقام عدة أشهر فى عاصمة بنى حفص غادرها على إحدى سفن البندقية إلى طرابلس ومنها إلى قابس ثم القيروان . ورجع بعد ذلك إلى تونس ثم رحل عنها إلى قسطنطينة و بجايا والجزائر ومازونا وتلمسان ووهران وأبحر على باخرة جنوية إلى الأندلس فى ربيع الثانى سنة ٨٧٠ (ديسمبر سنة ١٤٦٥) وزار مالقة وغرناطة فى شهرين ونصف . ثم رجع إلى وهران وغادرها بعد عدة أشهر إلى تونس على باخرة جنوية . ثم رجع إلى مصر ماراً بليبيا ؛ فوصل الأسكندرية فى شوال سنة ٨٧١ (مارس ١٤٦٧) .

*
* *

ومما يؤسف له أن عبد الباسط لم يدون أخبار رحلته فى كتاب مستقل ولكنه كتبها فى مواضع متفرقة فى كتابه « الروض الباسم » . وقد قام المستشرق ليفى ديلاڤيدا Levi della Vida بنشر المقتطفات الخاصة بالأندلس مع ترجمة وتعليقات فى مجلة « الأندلس » سنة ١٩٣٣ وأعلن

عزمه على نشر الجزء الخاص بطرابلس . بينما قام الأستاذ برنشويج Brunschwig بنشر الأجزاء الخاصة بتونس والجزائر ومراكش ومعها ترجمة فرنسية وتعليقات . والحق أن هذه المقتطفات وثائق عظيمة الشأن فى تاريخ المغرب فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) فهى تميط اللثام عن جوانب شتى من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى ذلك العصر.

وكان عبدالباسط يكسب نفقات أسفاره من التجارة فى العبيد وفى البضائع المصرية والمغربية واستطاع بذلك أن يختلط بالتجار فى البلاد التى مرّ بها . ولكنه كان يجتمع — فضلا عن ذلك — بالفقهاء والعلماء ولا سيما رجال الطب . وكان ينظم الشعر فأمكنه الوصول إلى مجالس العظماء . وكان يكافأ على قصائده فى المديح بإعفائه من الضرائب على تجارته أحياناً ، و بمنحه العطايا أحياناً أخرى . من ذلك أنه نظم قصيدة فى مدح صاحب تلمسان « فكتب له ظهيراً بمسامحته فى كل ما يتصرف فيه من نوع المتجر » وأنه فى سنة ٨٦٧ أنشد للمتوكل على الله صاحب تونس بيتين فى مدح بنى حفص ، هما :

ألا يا آل حفص يا ملوكا ويا درراً بهم نظمت سلوك
ألا فقتم ملوك الأرض طراً فما من بعدكم أحد مليك

فأعجب بهما المتوكل وكتب لعبد الباسط « ظهيراً بإعفائه من المغارم واللوازم فيما يتجر فيه » .

وعرف عبد الباسط بالتسامح الدينى واحترام عقائد الآخرين كما يتبين

من حديثه عن طبيب اسرائيلي لقيه فى تلمسان سنة ٨٦٩ ﻫ قال : « ولازمت فى الطب الرئيس الفاضل الماهر . . . . موسى بن صموئيل بن يهودا الإسرائيلى المالقى الأندلسى اليهودى المتطبب . . . هداه الله تعالي للاسلام. لم أسمع بذمى ولا رأيت كمثله فى مهارته فى هذا العلم وفى علم الوفق والميقات و بعض العلوم القديمة مع التعبد الزائد فى دينه على ما يزعمه و يعتقده . وهو فى الأصل من يهود الأندلس وولد بمالقة قبل العشرين وثمانمائة وأخذ عن أبيه وغيره ، وأجازنى و بلغنى عنه فى هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة فى الطب بتلمسان وهو مقرب ومختص بصاحبها » .

وقد وصف عبد الباسط نزوله وغيره من التجار المسلمين فى ساحل البحر بالقرب من بجاية ، بعد تركهم السفينة الجنوية التى قدموا عليها ، وأشار إلى أن طائفة من البربر فى تلك النواحى فروا عند ما رأوه وسائر التجار وظنوا أن السفينة لبعض القرصان من الفرنج « غيروا هيئتهم حيلة لأخذ المسلمين » فصار التجار ينادونهم من البعد باللغة العربية و يقرون بالشهادتين ، والبربر « لا يلتفتون إليهم لكونهم لا يعلمون اللغة العربية بل البربرية فلا يفرقون بين لغة الفرنج والعرب » .

وفى هذه القصة إشارة إلى الغارات الكثيرة التى كان المسيحيون يشنونها على ثغور إفريقية لأسر المسلمين . وكان من المألوف فى تلك البلاد أن يأتى الأفرنج بأسراهم من المسلمين إلى إفريقية فيفديهم أهل البلاد .

ومن طريف ما رواه عبد الباسط قصة تدل على عبث قطاع الطرق

واللصوص بالتجار فى ذلك الحين . وخلاصتها أن جمعاً من التجار باعوا تجارة لهم فى فاس وأرادوا الرجوع إلى أوطانهم ولكنهم كانوا يحسبون لقطاع الطرق ألف حساب « فاتفق أربعة منهم على الرجوع بحيلة احتالوها ، مشت على العرب وقطاع الطريق ، بأن شروا حميراً وجعلوا عليها أخراجاً بما كان معهم من المال النقد ، وعمدوا إلى عبى عتيقة فجعلوها أغطية على الأخراج ، وأنهم أخذوا الطحال من الغنم فجففوه ودقوه وحملوه معهم مع شيء من الغراء وخرجوا وكانوا إذا قربوا من طائفة من العربان أو نجع أذابوا الغراء الذى معهم وجعلوا يلطخون مواضع من أبدانهم على رقابهم ووجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى نصف الساق ثم يذرون على ذلك مما معهم من الطحال المدقوق المجفف ويمشون بأسكانهم ، يوهمون بأنهم مجاذيم من أهل البلاء ، وأنهم يجولون بحميرهم عليها زادهم وأثاثهم فكانوا إذا اجتازوا على العرب ورأوهم على تلك الحالة هربوا فارين منهم وأبعدوا عنهم يخشون العدوى حتى كانوا يجعلون لهم من أنواع المآكل على ممرهم بالطريق ويشيرون إليهم من البعد بأن يأخذوا ذلك ويدعون لهم من غير أن يقربوا منهم ولا يصلوا إليهم . . . ولم يزالوا على ذلك حتى وصلوا إلى بلادهم ولم يروا إلا الخير والسلامة ، وكان يكاد أن لا يطير الطير من شرور من اجتازوا بهم من العربان وعدّ ذلك من غريب الحيل والنوادر » .

وروى عبد الباسط قصة أخرى يتبين منها أن التجار الداخلين مدينة

واهران كان يؤخذ منهم عند باب المدينة عشر قيمة ما معهم من البضائع ، وأن بعضهم كان يلجأ إلى تهريب بضائعه بتوزيعها على من يدخل المدينة من أهلها ، لأنهم لا يفتشون ولا يطلب إليهم أن يدفعوا أى ضريبة على ما يحملون . وكان التجار يستردون بضائعهم فى المدينة بعد نجاح حيلتهم فى التخلص من دفع الضريبة المطلوبة .

وأشار عبد الباسط إلى أن الأشراف من بنى هاشم كانوا يلقون فى بلاد المغرب تعظيما كبيراً ، مما أدى إلى أن بعض المحتالين كان يفد من مصر والعراق إلى بلاد المغرب منتسباً إلى أسرة النبى وجامعاً حوله نفراً من الأنصار والمحتالين ولم يكن من السهل أن يكشف أمرهم .

ومما لاحظه هذا الرحالة أن المسجونين فى تونس كانوا فى حالة يرثى لها وقد حدث فى جمادى الثانية سنة ٨٦٧هـ أن كثرت استغاثتهم «حتى أعيوا السامعين ، فسأل السلطان صاحب تونس عن حالهم فبلغه بأنهم يشكون الجوع فأمر لهم بطعام يفرّق فيهم وحصل لهم بذلك نوع رفق فى الجملة » .

وصفوة القول أن عبد الباسط روى فى كتابه أخباراً كثيرة عن رحلته فى بلاد المغرب والأندلس . وكلها تشهد بدقة ملاحظته وتشير إلى نظم تلك البلاد فى عصره و إلى أحوالها الاجتماعية والاقتصادية .

الخاتمـــة

عرضنا فى الصفحات السابقة أخبار الرحالة المسلمين ، وظهر لنا أن المجهولين منهم أكثر ممن حفظ التاريخ أسماءهم . فمعظمهم لم يعن بتدوين أخبار أسفاره . واستطاع نفر قليل منهم أن ينتفع بها فى الكتابة فى التاريخ وعلم تقويم البلدان . ووفق أفراد معدودون لتدوين أحاديث الرحلات التى قاموا بها ولسرد مشاهداتهم العجيبة فى البلاد التى تجولوا فيها .

*
* *

وأما شأن هذه الرحلات فى تطور العلم والمعرفة فما من شك فى أن المسلمين ساهموا فى التعريف بالشرق الأقصى وإفريقية فضلا عن آفاق دولتهم المتراخية .

فالرومان كانوا يتخيلون وجود الصين ؛ ولكن الرحالة المسلمين عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة العصور الوسطى أخباراً أيدتها رحلة ماركو بولو

البندقى فى القرن الثالث عشر الميلادى . وكان الرومان لا يعرفون من قارة إفريقية إلا سواحلها الشمالية ، أما المسلمون فقد عبروا الصحراء وعرفوا مجاهل هذه القارة التى ظل الأورو بيون حتى القرن الثامن عشر يقفون عند سواحلها فلا تتطول أعناقهم إلى ما وراءها .

أما بلاد العرب والعراق و إيران فطبيعى أن يكون المسلمون المرجع الأساسى فى دراسة وصفها الجغرافى والعمرانى والاجتماعى ، إلى غير ذلك مما لم يصل إليه الغر بيون قبل العصور الحديثة .

*
* *

وحسبنا لتبيان فضل الرحالة المسلمين أن ينتهى بنا المطاف إلى أن دراستهم على نحو وافٍ دقيق أمر لابد منه لكل بحث فى تاريخ التجارة أو النظام السياسى أو التاريخ الاجتماعى فى الشعوب الإسلامية والأمم التى اتصلت بها ؛ فإن ما كتبه الرحالة المسلمون من وصّافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه ، يضم الوثائق العظيمة الشأن فى تاريخ الإنسانية . وفى استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة ، مطمئناً إلى نتائج بحثه ، إذا أقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة و بشىء من الحذر الذى يتطلبه النقد العلمى عند معالجة النصوص فى العصور الوسطى غر بية كانت أو شرقية .

*
* *

وتمتاز قصص الرحلات الإسلامية عامة بظهور شخصيات الرحالة فيها ،

فإن أكثرهم لا يقفون عند وصف مراحل أسفارهم وصفاً عاماً ، بل يعنون بتقييد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة فى أقاليمهم . ثم إنهم يحرصون على لقاء أعلام البلاد التى يجتازونها من علماء وأدباء ورؤساء إلى جنب تعرفهم إلى طبقات الشعب المختلفة .

* * *

وقد كتب المستشرق الروسى فلاديمير مينورسكى V. Minorsky أن جغرافيي العرب ملأوا الفراغ وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليونانى وعهد ماركو پولو العالم البندقى ، وأن أخبار رحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعاً وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطوراً فى كتب علماء اليونان وجداولهم وأن علمهم الذى ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختياراً ونقداً وأكثر فى التفاصيل مما ورد فى كتابات الرحالة البندقى العظيم ماركو پولو .

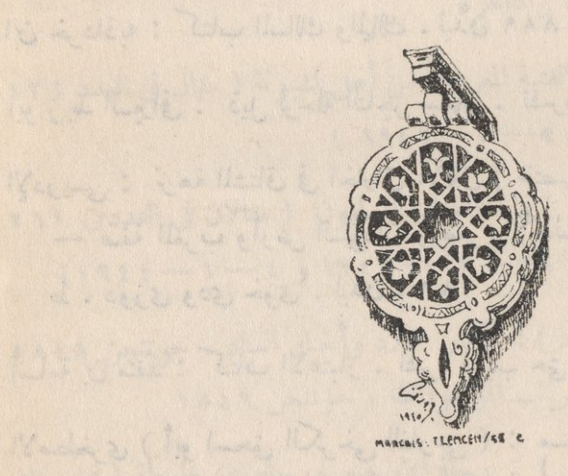
* * *

وكان ما كتبه الرحالة المسلمون عن البحار مصدراً للقصص البحرية العربية . وهى — على قلة عددها — من أبدع القصص البحرية فى آداب العالم على الإطلاق (١) . وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة السندباد البحرى وقصة عبد الله البرى ؛ فالثابت أن كثيراً من وقائع القصص البحرية منقول

(١) راجع كتاب « حديث السندباد القديم » للدكتور حسين فوزى ص ١٨١ وما بعدها

من كتب الرحلات وكتب العجائب[(١)] . بل رأينا أن كتب الرحلات كانت مصدراً لكثير من الجغرافيين . ومن ذلك أيضاً ان ابن الفقيه نقل فى كتابه « مختصر البلدان » أجزاء كبيرة من رحلة سليمان السيرافى .

وفضلا عن ذلك كله فإن بعض الرحالة والملاحين المسلمين كان لهم شأن عظيم فى مساعدة أعلام الرحالة الغربيين فى مجاهل إفريقية والمحيط الهندى فى نهاية العصور الوسطى و بداية العصور الحديثة[(٢)] .



---

(١) راجع حديث السندباد القديم ص ١٩٢ — ٣٥٦

(٢) انظر Ch. de la Roncière : La Découverte de L'Afrique au Moyen Age ج ٢ ص ٥٥ و ٨٧

مراجع

ابن بطوطة : تحفة النظار فى عجائب الأمصار ، ط . باريس والقاهرة

ابن جبير : الرحلة الى المشرق ، ط . ليدن ولندن والقاهرة

ابن حوقل : المسالك والممالك . ليدن ۱۸۷۳

ابن خرداذبه : كتاب المسالك والممالك . ليدن ۱۸۸۹

ابو زيد السيرافى : ذيل لرحلة التاجر سليمان . نشره رينو . باريس ۱۸٤٥

الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (مختصر طبع روما ۱٥۹۲)

— صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . عن « نزهة المشتاق » ، ط . دوزى ودي خوى . ليدن ۱۸٦٦

أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار . نشره فيليب حتى ، جامعة برنستون ۱۹۳۰

الاصطخرى (أبو اسحق الكرخى الفارسى) : مسالك الممالك . ليدن ۱۸۷۰

انستاس مارى الكرملى (الأب) : عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب (مقال فى العدد الثانى فى المجلد ۱۰٦ من مجلة المقتطف . فبراير سنة ۱۹٤٥)

البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد) : الآثار الباقية من القرون الخالية . لندن ۱۸۷۹

— تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة فى العقل أو مرذولة . نشره ساخاو . لندن ۱۸۸۷

حسين فوزى (الدكتور) : حديث السندباد القديم . القاهرة ۱۹٤۳

الدمشقى (شمس الدين أبو عبد الله الصوفى) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر . سنت بطرسبرج ١٨٨٦

سليمان (التاجر) : سلسلة التواريخ . نشره لانجلس Langlès سنة ١٨١١ ونشره رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية فى باريس سنة ١٨٤٥

زكى محمد حسن (الدكتور) : الصين وفنون الإسلام . القاهرة ١٩٤١

— كنوز الفاطميين . القاهرة ١٩٣٧

— الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى . القاهرة ١٩٣٩

— التصوير فى الإسلام . القاهرة ١٩٣٦

عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ط . أوربا والقاهرة

عبد الحميد العبادى : حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة (مقال فى العدد ١٣٦ من مجلة الثقافة بالقاهرة ، ٥—٨—١٩٤١)

عبد الوهاب عزام (الدكتور) : البلغار المسلمون (مقالان فى العددين ٢٦١ و٢٦٢ من مجلة الثقافة ، ٢٨—١٢—١٩٤٣ و ٤—١—١٩٤٤)

القزوينى (زكريا محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد . جوتنجن ١٨٤٨

— عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . جوتنجن ١٨٤٩

محمد مصطفى زيادة (الدكتور) : رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة (محاضرتان ألقيتا بدار مكتب التبادل الثقافى للمغرب بمصر — ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩)

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط . باريس والقاهرة

— التنبيه والاشراف ، ط . ليدن والقاهرة

نقولا زيادة : روّاد الشرق العربى . القاهرة ١٩٤٣

D'Avezac, Armand : Les îles fantastiques de l'Océan Occidental au moyen âge, Paris 1845.

Beazley, C.R. : The Dawn of Modern Geography, 3 vols. (vol. 1, London 1897)

Benjamin (of Tudela); The Travels of Rabbi Benjamin ben Jonas of Tudela, through Europe, Asia and Africa, from Spain to China. London 1764

Bretschneider, E : On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies and other Western Countries mentioned in Chinese Books. London 1871

Brunschwig R.: Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord. Paris 1940

Casanova, Paul : Notes sur les voyages de Sindbad le Marin. le Caire 1922 (Extrait du Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, t. xx)

Della Vida, L.: Une nouvelle source pour l'histoire de l'Afrique du Nord (Hesperis, t. XIX)
— Il regno di Granata nel 1465—66 nei ricordi di un viaggiatore egiziano (al-Andalus, 1933)

Ferrand, G. : Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine rédigé en 851, suivi de remarques par Abu Zayd Hassan vers 916. Trad. G. Ferrand. Paris 1922.

Relations des Voyages et texte géographiques Arabes, persans et turcs relatifs à l'Extèrme-Orient du VIIIe au XVIIIes. Paris 1913—1914

Fraehn, Ch. M. ; Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte über die Russen älterer Zeit und ihre Nachbarn. St. Petersburg 1823

Gibb, H.A.R. : Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa (Translated and selected, with an introduction and notes, by Gibb, London 1929).

Goeje, J : La légende de saint Brandan, tirée des Actes du 8e Congrès international des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et à Christiania, Leyde 1890

Heyd; W : Histoire du commerce du Levant au moyen âge. Leipzig et Paris 1885 - 6

Hirth, F. and Rockhill, W.W. : Chau Ju-kua : His Work on the Chinese and Arab Trade in the XIIe and XIIIe centuries entitled Chu-fan-chi, trans. from the Chinese and annotated. St. Petersburg. 1911

G. Jacob : Studien in Arabischen Geographen. Berlin 1891 - 2

Jaubert, P.A. : Géographie d'Edrisi, traduite et accompagnée de notes, tome V et VI du Recueil de Voyages et de Mémoires publié par la Societé de Géogrphie de Paris 1836 - 40

Kammerer, A : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Le Caire 1929 at 1935

Marco Polo : The Book of Ser Marco Polo, the Venetian. Translated and edited by Sir H. Yule. London 1903

Nasir — i — Khosrau : Sefer Nameh, éd. Chefer. Paris 1881

Reinaud, J.T. : Mémoire géographique, historique et scietifique sur l'Inde, antérieurement au milieu du XIe siècle de l'ère chretienne d'après les écrivains arabes, persans et chinois. Paris 1849.

Renaudot, E. : Ancient Accounts of India and China by two Mahomedan Mediaeval Travellers 1733, retranslated from the annotated French translation (1718) of ths texts of Sulayman the Merchant (851 A.D.) and Abu Zayd Hassan of Siraf (912 A.D.)

De la Roncière, Charles : La Découverte de l'Afrique au Moyen Age. le Caire 1925

De Saint — Martin, Vivien : Histoire de la géographie. Paris 1873

Schloezer, K. von : Abu Dolef Misaris Ben Mohalhal (texte arabe et traduction latine, Berolini 1845)

de Vaux, Carra : Les Penseurs de l'Islam (t. II, Paris 1921)

Youssef Kamal, Prince : Monumenta Géographicae Africae et Aegypti (tome III, époque arabe)

كشاف

فهرس

تم طبع هذا الكتاب فى مطابع
دار المعارف بمصر يوم السبت
٧ من أبريل ١٩٤٥

شفيق نجيب مترى

١٩٤٥/٤/١٤٥٨/١